

## المقال الثالث عشر

### الصحة والطب في أمريكا قبل كولومبس

تشمل عبارة «قبل كولومبس» مرحلة طويلة، يرتد أكبر جزء منها إلى ما قبل التاريخ المكتوب، وتبتدئ عند وصول مهاجرين اتفق المؤرخون على أنهم نزحوا إلى القارة الأمريكية من آسيا حوالي القرن العشرين قبل الميلاد، وتنتهى في يوم ١٢ أكتوبر ١٤٩٢، عندما أرسى (خريستوف كولومبس) مراكبه في جزيرة صغيرة من جزائر الأنتيل وهو يظن أنه وصل الهند أو اليابان، ومن هنا كانت تسمية هذه الجزائر بالهند الغربية وسكانها الأصائل بالهنود، ثم تسميتها الحديثة (بأمريديا Amerindia) وسكانها بالأمريديين Amerindians وهما لفظتان منحوتتان من (أمريكا) و (الهند) تميزهما من هند آسيا والهنديين الآسيويين. ولكننا يحق لنا أن نرجع بهذه الحقبة حتى تشمل أواسط القرن السادس عشر أو الثلث الأخير منه، أى بعد أن بدأت الحضارة الأوربية تستبدل بالعوائد المحلية، نتيجة لتعاقب رحلات الفاتحين والمغامرين على هذه البلاد.

غير أن تسمية هذه المرحلة الحضرية بحضارة «قبل كولومبس»، إذا دلت بمعناها الحرفي على الحقيقة السابقة لهذا الحدث التاريخي، فإنها تنطبق في الحقيقة على الثقافة السابقة للثقافة الأوربي - الأمريكى بأسرها، وبما أن موجات الاستعمار، والثقافة الذى تبعها، لم يكن انتشارها متساويًا في الزمان والمكان، ولكنها تابعت من القرن الخامس عشر في بعض المناطق إلى يومنا هذا في مناطق أخرى، فإن مرحلة «قبل كولومبس» انتهت مبكرة في أمريكا الوسطى وفي الشمال الشرقى، في حين أنها ما تزال قائمة إلى الآن في أقصى الشمال الغربى والجنوب.

وقد اعتاد الكتاب حصر نظرتهم إلى أمريكا «قبل كولومبس» على دولتى المكسيك وشعبها (المايا) و (الاستيكاس) وبيرو وشعبها (الإينكاس)، وهما أهم مركزين حضاريين فيها، ولكنه غير خاف أن هذه البلاد آوت شعوبًا أخرى أعرق قدمًا، لم يتعرف عليها

إلا منذ عهد قريب، شعوباً امتدت مستعمراتها من (السكا) في الشمال، إلى (أرض النار) في الجنوب، ومن المحيط الهادئ غرباً إلى المحيط الأطلسى شرقاً، وقد كُتبت هذه الشعوب أسس تراث هذه البلاد الفنى والعلمى.

تمتعت هذه الشعوب بمدينة متقدمة، وإن كانت ناقصة في كثير من مظاهرها، فقد جهلت استعمال العجلة وحيوانات النقل، ولم يعرف «الإنكاس» الكتابة، ومع ذلك فقد شيدت هذه الشعوب عمارات شاهقة، ونقشت نقوشاً وأنتجت تحفاً وحلياً تثير الإعجاب، وتقدمت في الحساب، وكانت لها جداول زمنية مضبوطة وملاحظات فلكية هي غاية في الدقة، ولكن هذه الحضارة، التي لم تقل بهاءً ولا غنى عن أية حضارة قديمة، امتازت - بحكم عزلتها التامة عن العالم القديم - بتقاليد فنية فريدة تدعو إلى الدهشة والاستغراب، كما اتسمت عقائدها الدينية بالشراسة وبالشغف بسفك الدماء وتتقدم القرابين البشرية، واختلفت مقوماتها عنها في الحضارات المعروفة الأخرى، الأمر الذى هيا للفاتحين الأسباب تبرير فتحهم، بدعوى أن «الأميرندى» كائن غير عاقل. وقد بنوا حكمهم على اعتياد «الهنود» أكل اللحوم الأدمية، وممارسة ألوان من الشذوذ الجنسى، واللواط المغاير، وتضحية القرابين البشرية، والتعذيب الذاتى، والانتحار الطقسى بأساليب بشعة، بل بتألية الانتحار، وتعاطى المواد المهلوسة، وغشيان المحارم، وإقامة التخنث مؤسسة اجتماعية رسمية.

ومن ثم ادعوا حق امتلاك أراضيهم، وممتلكاتهم، بل وأشخاصهم، والقيام برسالة فرضتها عليهم العناية الإلهية، وهى تنوير هؤلاء الوثنيين وإهداؤهم الى الدين المسيحى. ولم يبالوا بالتناقض المنطقى الذى وقعوا فيه إذ بشروا الجماعة قالوا إنهم من غير أصحاب العقول.

وقد باشروا هذه الحقوق المزيفة والادعاءات الكاذبة فى ظلم وشراسة وهتك ونهب، كانت نتيجةها إزعاج بعض الأفاضل من رهبان الدومنيكان والفرنسيسكان، فاتصل هؤلاء بالبابا (بول الثالث) - وكان البابا صاحب القول والفصل فى أوربا - فما كان منه إلا أن أقر بشرية الأمرنديين، وكان هذا فى سنة ١٥٣٨.

ولكن هذا القرار كان من نتيجة إبطال الحقوق التى كان البابا منحها فى سنة

١٤٩٣ إلى التاج الأسبان، فوجد البابا نفسه مضطراً إلى إيقاف الأمرين السالفين لتناقضهما مع القوى الممنوحة إلى ملك أسبانيا، وبالتالي اتيح لمجلس الهند مصادرة الأمرين البابويين بحجة ضرورة تفحصهما، فتح المجلس توزيعهما في أمريكا. غير أن هذه القضية شغلت أسبانيا بأسرها في القرن السادس عشر، - وهو عصر أكبر اللاهوتيين الأسبان - وكان بطل الدفاع عن الهنود (فرانسيسكو دي فيتوريا Francisco de Vitoria) الذى أعاد في كتاباته حقوق البابا والأمراطور إلى أحجامها الصحيحة، ورفع مركز الأمرنديين الروحاني والقانون.

وقد تدرجت شعوب أمريكا من حيث نصيبها من التقدم بين بدائية البلاد التى كونت فيما بعد الولايات المتحدة، وغاية الرفاهية فى فن (المايا) فى المكسيك وجواتيمالا، ومع ذلك فإننا نجد فى طب مناطق هذه القارة بأسرها تشابهاً يدل على وحدة فكرية، ويسمح بشموله تحت تسمية واحدة. هذا إذا ارتضينا تسمية وسائل العلاج الجارى استخدامها حينذاك طباً. وإنما نستعمل هنا هذه التسمية بأوسع معانيها، أى على اعتبار أن الطب هو مجموع الطرائق التى تستخدم للعلاج، بغض النظر عن علاقتها بما نعرفه بالطب اليوم، وعن مدى اختلافها عن السحر والشعوذة والعلاج الكهنوتى، وتلك أسس الطب البدائى، ذلك أن الطب لم يكن قد انفصل بعد عن الاعتبارات الدينية أو الروحانية أو الشيطانية التى كانت تكون عموده الفقرى، بل إن هذه الاعتبارات كانت تتدخل فى حياة الفرد فى كل مرحلة من مراحل حياته، وبصورة خاصة فى فترات الانتقال من مرحلة إلى أخرى من حياته، وكانت ترتبط بنواحي نشاطه كافة، بما فيها الفن، وهذه هى الناحية التى أمدتنا بأهم المراجع فى تقويم هذا الطب، حتى أن دراسة تاريخ الطب أصبحت جزءاً لا يتجزأ من علم الآثار.

### نبذة تاريخية :

يبدو أن الإنسان ظهر فى شمال القارة الأمريكية قبل عهدنا هذا بحوالى ٢٠,٠٠٠ سنة ، قادماً من آسيا عن طريق مضيق برنج، من سلالة قديمة من الأسكيمو، تنتسب إلى الصينيين، حسب رأى بعض العلماء، أو إلى السقيطيين Scythians حسب رأى البعض الآخر.

وفي الجنوب قدمت قبائل أخرى من جزر ميلانيزيا أو أندونيسيا، ومن المستبعد أن تكون قدمت من جزر بولينيزيا، أى في اتجاه على عكس اتجاه رحلة (الكون تيكى) إذ إن هذه الجزر ظلت مهجورة حتى سنة ١٠٠٠ ق.م. ومهما يكن من أمر هذه الهجرات المتتالية، فإن ولايات أريزونا وتكساس كانت عامرة بالسكان زهاء الألفية الثالثة عشرة قبل الميلاد، وسكنت أرض النار حوالى الألفية السادسة، وكان أهم مركزين للتقدم الحضرى هما المكسيك وبيرو، وقد تشابه طب هاتين الحضارتين إلى حد كبير، مع اختلافهما العنصرى والزمنى.

أما في المكسيك فإن إحدى أقدم الحضارات التى تعرف عليها المؤرخون هى حضارة الأولمك Olmec - أهل بلاد المطاط - المسماة أيضاً بحضارة (لافتسا) La Venta التى ترعرعت بين القرن العاشر ق.م. والقرن السادس الميلادى. وكان ذلك الشعب يشابه في سماته الطبيعية وفي تكوينه الجسمى شعوب أفريقيا السوداء، وقد حل بمنخفضات شواطئ بغاز المكسيك، وكان يعبد ثمر أمريكا (الجاجوار).

وكانت المرتفعات الواقعة شمال مدينة مكسيكو مركز شعوب تحكمها الكهنة حكماً دينياً، وصلت إلى قمة ازدهارها بين القرنين الرابع والتاسع الميلاديين، وكان لها أثر بالغ في حضارة المكسيك كافة، وبصورة خاصة في تطوير فن الأستيكاكس ذى الطابع الهندسى، وهذه الحضارة هى التى بنت معابد هرمية كانت تقام فيها طقوس الإله (تلالوك Tlaloc)، وإله المطر الخصب (كوتزلكواتل Quetzalcoatl) إله الحياة والخير والعلم المصور على شكل طائر له ريش ال Quetzal، وإله (كويكسبتوتك Quixepetotec) (الإله المسلوخ) إله الخصب وأنجاب الذرية.

ثم هناك شعب الزابوتك Zapotek المؤمن بدين طبيعى امتاز بكثرة الآلهة (٩٠٠ ق.م. - ١٠٠٠م)، وشعب المكستك Mixtek، الذى برع في فنون الحرب وصياغة الذهب، وشعب التلتك Toltec الذى أنشأ مدينة تولا (٨٩٠م)، والتوتوماك Totomac (القرن ٧ إلى ١٤م) الذى ترك في شمال فيراكروز تماثيل خزفية عديدة للإلهة (سيهو اتكتو Cihuatecteo) إلهة السيدات اللاتى يمتن في أثناء الولادة، واللاتى كن ينلن بذلك اعتبارا يماثل ما يناله المستشهدون في الميدان.

وأهم حضارتين بين تلك الحضارات العدة كانتا كما أسلفنا الحضارتين اللتين امتاز  
بهما المايا والاستيكاس.

وقد وصل المايا من الشمال حوالى ٣٠٠٠ ق.م. وظلت حضارتهم فى ركود تام حتى  
حوالى سنة ١٠٠٠ م حين أحرزت تقدماً بيناً. وترجع عماثرهم الحجرية إلى حوالى  
٣٥٠ ق.م. وتكونت إمبراطوريتهم بانضمام مدن كثيرة احتفظ كل منها باستقلالها فى أول  
عهدهما ثم اتحدت. وقد تجلّى تباين العناصر التى تكون منها المايا فى عدد اللهجات التى  
كانوا يتحدثون بها، وقد بلغ عددها خمس عشرة لهجة. أما نشأة مدينتهم فإنها ترجع إلى  
تأثيرات من الأوك، ومن مدينة تيوتيوكان. وقد قسم تاريخهم إلى ثلاث حقب:  
الحقبة قبل الكلاسيكية التى انتهت حوالى ٣٢٠ م، والكلاسيكية التى امتدت من سنة ٣٢٠ م  
إلى ٩٨٧ م، وبعد الكلاسيكية أو التولتك Toltec التى عاصرت القرون الستة التالية. وقد  
اضمحل سلطانهم تحت تأثيرات جوية، وأوبئة متتالية، وحروب مستمرة، وانتهى عند  
الفتح الأسباني، أى حوالى سنة ١٤٥٠ م فى المكسيك وسنة ١٦٩٧ فى جواتيمالا.

وقد امتاز المايا بأرق حضارة فى أمريكا، ولهذا التفوق لقبوا (إغريق العالم الجديد)،  
وقد بنوا بنايات ضخمة، واخترعوا استعمال الصفر فى الحساب - إلى جانب هندود  
آسيا- وبنوا حسابهم على أساس رقم ٢٠، وابتكروا خطأ هيروغليفيًا يستخدم الصور  
والرسوم للتعبير، وذلك الخط لم يتوصل العلماء إلى حل رموزه إلا سنة ١٩٦٥ عن طريق  
الحساب الاحصائى واستعمال الأجهزة الألكترونية. ومع هذا الرقى شغفوا بتقديم القرابين  
البشرية، ومن الغريب أن هذه القرابين كانت إرادبة فى كثير من الأحوال، لا اعتقادهم  
أن الانتحار الطقسى، الذى كان يهيم عليه الإله (اكستال Ixtal)، والذى كان فرضاً  
على المنتصرين فى لعبة كرة البلوت الشعبية (آه!) يضمن لهم خيرا الحياة بعد الموت.

أما حضارة (الاستيكاس)، وهى أقصر الحضارات مدة وأقربها إلى عصرنا هذا -  
فقد بدأت فى القرن الثانى عشر الميلادى، عندما هاجر (التولتك) إلى شبه جزيرة  
يوكاتان، وهى لم تمتاز بأية خصائص مميزة، بل اقتبست الكثير من المايا، ثم ابتلعت كل  
الحضارات الأخرى وتقمصتها بفضل قوة نظامها الكهنوتى والعسكرى. ولم تكن لهذا  
الشعب كتابة، وإن كان قد استعمل طائفة من الرموز المصورة لبعض الكتابات المقدسة.

وهذا الشعب هو الذى أنشأ مدينة مكسيكو (وأصل اسمها Tenochtitlan تينو شتلتان) فى أرض وجد فيها كهانة نسرًا (وهو رمز السماء والحياة العاملة الإيجابية) يلتهم ثعبانًا (وهو رمز الأرض والموت)، وما تزال صورة النسر الملتهم للثعبان رمزًا و «رنكًا» للمكسيك. وقد بلغ هذا القوم ذروة مجده بين ١٤٢٥ ، ١٥٠٠م، ثم استولى الأسبان على ملكه فى سنة ١٥١٩م.

كان هذا الشعب شعبًا عسكريًا، يؤمن بأن الحرب فرض دينى غايته جمع الأسرى الأحياء لتضحيتهم على الهياكل بغية ضمان بعثه، وذلك تمشيًا مع المبدأ القائل بأن الموت يستخلف الحياة فى تجدد دورى، وكان يعتقد أن قلوب الضحايا إنما هى زهور تقدم للآلهة، وأن دماء هذه الضحايا ما هى إلا ماء نفيس يغذى الخلق ويخصبه ويجدده، وكذلك آمن بألهة عدة، منها إله ذو شقين ذكر وأنثى، وإله الذكورة، وأم كل الآلهة، المهيمنة على القمر والولادات والحصاد والملذات الجنسية، وإلهة الموت، وإله الشمس المحب للقرابين البشرية، وغيرها.

وفى بيرو تعددت الحضارات ولكنها وقعت كلها فى القرن الخامس عشر الميلادى تحت سيطرة الأينكاس Incas. وقد ازدهرت بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر الميلاديين، أى أنها عاصرت حضارة الأستيكا فى المكسيك. وتميز دستورهما بتقسيم القوم إلى طبقات تفصلها حواجز صلبة، وإدارة حكومية حاسمة، وبنوع من الاشتراكية يضمن احتياجات الشعب شريطة أن يسلم الفرد للدولة كل منتجات عمله، ولقد صاغ الأينكاس الذهب (الذى سموه عرق الشمس)، والفضة (وكانت فى نظرهم دموع القمر)، على أنهم تفوقوا فى هذا الفن على المكسيكيين وغيرهم من سكان القارة. وشقوا الطرق، وبنوا القناطر على مسافات مجموعها ٥,٢٠٠ كيلو متر، ومع ذلك كله فإنهم لم يعرفوا الكتابة ولم يستخدموا الحيوانات للنقل، وانتهى ملكهم سنة ١٥٧٢ لدى مقتل آخر ملوكهم ، توباك أمارو Tupac Amaru على يد الأسبان.

\* \* \*

والعجيب فى هذه الحضارات أنها تشابهت تشابهًا كبيرًا، وذلك مع الحقب الطويلة الفاصلة بينها، ومع جهل أكثرها للكتابة ومع قلة السفر البحرى وصعوته وضآله الطرق

التي تصل بينها. ولذا فإنه يمكن وصف طبهم وصفًا يكاد يكون موحدًا، مع الإشارة إلى الفروق في حينها.

وكان لها طب متميز عن غيره، لم يقل فاعلية عن طب أوروبا المعاصرة، أو عن فاعلية خليط الخرافات والعادات الذي أدخله الفاتحون ومدعو التطيب. وبما أن الشعوب والقبائل التي أمت القارة الأمريكية هجرت إليها من سيبيريا أو من نواح أخرى من آسيا، فقد جلبت معها معجزاتها المغولية التي نرى آثارها الطبية فيما يطلق عليه «الشيانية» و «الطوطمية» اللتان نشأتا في آسيا، والشيانية مذهب من مذاهب شمال آسيا، يؤمن بعالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، الذي لا يستجيب إلا للساحر الكاهن (الشان)، أما الطوطمية فهي الإيمان بوجود صلة خفية بين جماعة وبين «طوتم» ما، ووثن يمثله. وقد يكون نباتًا أو حيوانًا، يتخذ رمزًا وعلماً للأسرة والعشيرة.

## المراجع :

المراجع التي يعتمد عليها في دراسة طب الأمرنديين كثيرة، ولكنها جميعها مراجع جزئية لا ترضى فضولنا تمامًا عند البحث عن الأمراض التي كانت هذه الشعوب تعانيها أو عن وسائل العلاج التي كانت تتبعها، ذلك لأن المتن الطبية المحضة تكاد تكون معدومة، وإذن فعلينا أن نلجأ إلى الاستنتاجات المستنبطة من التحف الفنية، و من التاريخ العامة التي لا تربي قيمتها على قيمة كل التفسيرات البشرية، لأنها تتلون، ضرورة، باعتبارات تعود إلى شخصية المفسر، أو إلى نزعة الفنان أو المؤرخ، أو إلى الأفكار الشائعة عند ظهورها.

وإذا أضفنا إلى هذا أن أرض أمريكا ما تزال تكتنز آثارًا وكتابات لم يكشف عنها إلى اليوم، نحتم قبول هذه الاستنتاجات بكثير من التحفظ، غير أن حكمتنا عليها يصح - إنصافًا لها - أن يبنى على المقارنة بالأحوال في أوروبا زمن الفتح الأسباني، وهو الزمن الذي أحرق فيه (سرفتوس) حياً لأنه وصف دورة الدم، والذي كان (فرنل) (Fernel) يميز فيه بين خواص زيل الحمام والدجاج والماعز وغيرها وكان (باراسلسوس) (Paracelsus)

يجد نفسه مرغماً على إحراق كتب (جالينوس) في الميادين العامة ليحرر الطب من الحبال التي كبله بها ذلك العالم الإغريق مدة ألف وستائة سنة.

وأهم حيثيات هذا الحكم سنسئدها، كالمعتاد، من البقايا البشرية، ومن الصور، والآثار، ومن المخطوطات المعاصرة، وسنوفى كلا منها حقها عند مناقشة الأمراض المختلفة، غير أنه علينا أن نلاحظ أن البقايا الجثمانية قليلة في المكسيك لاعتياد المكسيكيين إحراق الجثث أو دفنها بدون تحنيط، ولهذا السبب فإن معرفتنا للبقايا البشرية، وللأمراض والتشوهات الشائعة، لا تقارن بمعرفتنا لها في عهد الفراعنة وفي العهود المقابلة لها أو السابقة لها في مصر أو العراق.

ثم أن الموجود في المتاحف والمجموعات الشخصية من التماثيل وأواني الخزف كثير جداً. وهي تبين بعض الأمراض والتشوهات الخارجية، ولكنها بطبيعتها صامتة عن الأمراض الداخلية. كما أنه يدخل فيها وفي الرسوم - شأنها شأن كل إنتاج فني - عامل خاص بالفنان وميوله، وبالرمزية الدينية أو الطقسية الشائعة، وإلى هذا تبقى المخطوطات وما يزينها من الرسوم. وقيمة تلك لا تقدر بضمن وإن لم تكن واحدة منها «طبية» بالمعنى العلمى. غير أنها، مع ذلك، تحوى في ثناياها معلومات طريفة عن طبائع الهنود وأمراضهم وعلاجها. أما تلك التي سبقت كتابتها تاريخ الفتح الأسباني فإن عددها قليل جداً بسبب تعصب الطغاة الأسبانيين، وإصرارهم على إبادة كل هذه المستندات لحكمهم عليها بأنها شيطانية ووثنية. ولذا فإن جل المخطوطات الموجودة اليوم لاحقه للفتح، وبذلك لا تلقى إلا ضوءاً غير مباشر على الأحداث التي تروها.

وأحد المخطوطات التي سبقت الفتح: (كودكس درسدن Codex Dresdensis) الذى يرجع إلى ما قبل القرن الحادى عشر، موجود بفيينا، ويحوى دراسات فلكية، والثاني (Codex Tro-Cortesianus)، الموجود فى المتحف الأمريكى بميدريد، يجمع طائفة من -  
الطلائع الفلكية، والثالث كودكس بيريز (Codex Peresianus)، يحوى نبذاً عن طقوس مستوحاة من التقويمات اليومية (روزنامة).

ومؤلفو هذه المنسوخات، بعضهم من الهنود الذين اعتنقوا المسيحية، وارتضوا تقديم تاريخهم وأساطيرهم وعوائلهم القديمة على شكل يرضى حكاهم الطغاة ويتمشى ودينهم

الجديد، وقد ألفوا باللغة المحلية، وزودوا هذه المصنفات بتعليقات تفسيرية، أو بتراجم لاتينية أو أسبانية.

ولكن أغلبية هذه النصوص من تأليف الأوربيين الذين عاشوا في هذه البلاد، سواء كانوا موظفين إداريين أم عسكريين أم رهباناً أم زواراً، ويغلب في هذه النصوص الاهتمام بالملاحظات الطريفة أو العوائد الغريبة لتشويق القارئ أو لتبرير الفتح عن طريق السخرية من سكان أهل القارة الأصائل وإظهارهم بمظهر الوثنيين المتخلفين غير الجديرين بالاستقلال، أما الذين حاولوا إنصاف السكان الأصائل، أو تجاسروا على امتداحهم بعد أن دققوا البحث والاطلاع - إما عن محبة للبحث العلمي المحقق، وإما بواعز الإنسانية فإنهم كانوا قلة. ومن هؤلاء، في المكسيك، الراهب (برناردينو دي ساها جون Bernardino de Sahagun) الذي أعيد نشر مؤلفاته أخيراً (٢٠٢). وفي بيرو الراهب (بارتولومي دي لاس كازاس Fray Bartolome De las Casas) الذي استحق، لحبه سكان هذه البلاد، أن يطلق عليه ملك أسبانيا لقب «حامي جميع الهنود» ولم ينشر مؤلفه إلا في سنة ١٨٧٥ (٢٠٣).

ومن أهم الكتب المتأخرة - وعددها ضخمة - الثلاثة التي أشرنا إليها فيما سبق، والتي وضع أحدها (فيليب هومان بومادي أايالا Felipe Huaman de Ayala) حفيد آخر أباطرة الأينكاس، لتمجيد ماضي شعبه. وقد نُسى المؤلف زماناً غير قصير ثم كشف عنه بالمكتبة الملكية بكونهاجن في سنة ١٩٠٨، ونشر سنة ١٩٣٩ (٢٠٤)، ووضع ثانيها (جارثيلازو إنكادي لافيغا Garcilaso Inca De la Vega) المولد، والمتمسك إلى سلالة ملكية هندية عن طريق والدته، ووضع ثالثها الراهب اليسوعي (برنابى دي كويو Barnabe de Cobo) الذي ألف تاريخاً للعالم الجديد يتصف بالواقعية، انتهى من كتابته في سنة ١٩٥٣ (٢٠٥).

وقد أخذ عدد الدراسات التي تناولت طب هذه المناطق يزداد يوماً بعد يوم. ويستطيع القارئ الاطلاع على كشوف مفصلة لهذه المراجع في مقالات (جويرا (٢٠٦)، (٢٠٧)، (٢٠٨)، (٢٤٢)، وشاد فالدت Schadewaldt (٢٠٩) (وفرنسكو فلورس Francisco Flores) الذي راجع تاريخ طب المكسيك حتى سنة ١٨٨٨ (٢١٠)، (ومارتينيز دوران

(Martinez Duran) الذي تخصص في تاريخ جواتيمالا (٢١١)، وشارل خورى (٢١٢)،  
وشتورفاند (٢١٣).

### النشأة :

إننا إذ نتأمل في طب هذا العهد، إنما نشاهد الطب بصفة عامة، كأنه توقف في أول أطواره، وركد قرونًا ليسمح لنا بهذه النظرة الشائقة إلى أوائله.

نشأ الطب مع الإنسان؛ وقد كان له دائمًا وجهان : وجه إنساني بحت، ناجم عن حب الوالدين لطفلها المتألم، وشفقة عضو المجتمع على أخيه، واهتمام القائد بمجنوده، ووجه آخر، ناجم عن فضول الإنسان وحيرته أمام أسرار الكون، وعن نزعته السببية التي طالما حفزته إلى البحث عن سبب لكل مسبب، وقد ظل هذا الفضول أقوى دافع للتقدم، فقد دفع إلى تخمين تفسيرات، اختلف جانبها من الصحة، فاحتفظ بها مبتكروها إذا تحققت تكهناتها - واستبدلوا بها غيرها إذا تناقضت نتائجها والواقع، فكان تعاقب التخمينات، وتحسينها التدريجي مهما تكن من البدائية، بداية تهجى الفلاسفة للعلم، وأول قواعد انطلقت منها المعرفة.

ويقابل هاتين النزعتين اتجاهان مختلفان في العلاج :

أحدهما : عملي تجريبي يرمى إلى تخفيف العارض وتسكين الألم وتخفيفه، وهو ما نسميه بالعلاج العرضي.

والثاني : عقلي، يرمى إلى معرفة الأسباب الأولى لإزالتها. ولكن هذين الاتجاهين، بسبب نشأتها في ذهن واحد، تسائرا، واختلطا، وإن ظل كل منهما مستقلا عن الآخر، إلى حد كبير أو صغير.

ولم يختلف الطب (الأمرندي) عن غيره في العالم. غير أن نصيب كل من النزعتين، ودرجة تقدم كل منهما على الأخرى، وما حازت كل منهما من الركود أو التطور، اختلف عند كل شعب حسب نظرتة إلى الحياة. وقد تفرعت النزعة السببية عند أوائل وعى الإنسان - لدورها - إلى نوعين من التفسيرات : هما التفسير السحري والتفسير الإلهي، وقد غلب أولهما في (بيرو)، وكان للثاني الغلبة في المكسيك.

ويختلف السحر عن الدين اختلافاً تاماً، وإن كان الكثيرون من العلماء يرون أن الدين إنحدر عن السحر: فالسحر يؤمن بوجود قوى خفية مستقلة، غير مرتبطة بشخص أو بمادة، هي التي تنظم العالم، وإن هذه القوى يمكن أسرها ثم إحلالها في جسد الغير، وبصفة عامة تسخيرها لأغراض الساحر عن طريق وسائل معينة. وللسحر منطق خاص به، يستقرئ المثل بالمثل من القياس السطحي، ويرى روابط بين المسميات والأسماء، وبين الأجسام المتشابهة، ويؤمن بخواص الأرقام والحروف، وبقوة الألفاظ والأصوات والأسماء، وبمحمية تتابع الأحداث إذا حدث أن تابعت، وبإمكان إلحاق الأذى في شخص إذا فعل هذا بنموذج يشابهه، وما إلى هذا من فروض مبنية على سببية وهمية.

أما الطب اللاهوتي أو الكهنوتي فإنه يختلف عن الطب السحري في الجوهر وإن كان يشابهه في الشكل ولا يتميز عنه أحياناً. ذلك أن السحر يدعى سلطاناً مباشراً على القوى الفعالة التي يفرضها، ويأمرها بأداء المطلوب منها، ويسخرها لأغراضه، في حين أن الطب اللاهوتي يتوسل إلى الإله طالباً تدخله في الأمر المطلوب(٢١٤).

وقد حاول الكثيرون تحديد الفيصل بين الدين والسحر. فقال البعض إن الدين هو العقيدة والسحر هو الطقس. إلا أن ديناً لا يرسم لمعتقيه خط السير في الحياة لا يسمى ديناً، ولا يزيد عن كونه نظرية فلسفية. وقال البعض الآخر إن أساس الأديان هو قبول سلطان الآلهة ثم مساومتها بقبول التقيد بالفروض الخلقية وواجبات العبادة ثمناً لما يطلب منهم من حماية ورعاية، وهذا أقرب إلى الحقيقة والعقل.

وبالتالي فإن وسائل الطب اللاهوتي اتخذت صورة مختلفة عن وسائل السحر، إذ إنها نبتت عن الفكرة بأن المرض إنما هو عقاب الآلهة للإنسان لخطيئة ارتكبها، وإذن فإنه يتحتم البحث عن هذه الخطيئة، أو فرض وجودها، ثم الالتجاء إلى الآلهة لرفع العقاب، أو التوسل إلى إله أقوى للتغلب على الإله المؤذي، وهذا بالصلوات والترتيلات وتقديم البخور والقرايين وبالطقوس التي كان يفرضها كل دين.

غير أن شخصية سادن السحر أو الكاهن كان لها أكبر أثر في هذه الطرائق العلاجية. وهذا ما نراه إلى اليوم في حلقات العلاج التي تخرج عن الطب العلمي،

كالعلاج الروحاني أو العلاج المغنطيسي إلخ.. ولخطورة الساحر بين قومه خضع اختياره لقواعد دقيقة، فلا بد أن يكون من سلالة ساحر عظيم، أو أن تقترن أفلاك موالية ساعة ميلاده، أو أن يحمل بعض الشارات على جسمه، أو أن يصاب بأحد الأمراض المقدمة المزعومة كالصرع أو الهستيريا، أو بتشوهات معينة، أو أن تكون أعجوبة قد وقعت له في حياته إلخ.. وما يزال رهبان التبت يأخذون بمثل هذه الاعتبارات في انتخاب أئمتهم، كما تراعيها الشعوب البدائية في اختيار سحرتها.

وليس ثمة شك في أن الساحر كان يرى تربية خاصة تقوى ملكاته، وتلهب حواسه وتزيد من عقيدته بأنه امتاز عن إخوته، هذا بالإضافة إلى وسائل الخداع التي كان يمارسها. ومن أمثلة هذا ما شاهدته «روث بندكت» بين هنود شمال غرب أمريكا، فقد روت أنها رأت ساحراً يضع قطعة من القطن داخل فم بين اللثة والخد، ويتمضمض أمام الملائك ليرهن على خلوه فيه، ثم يعض غشاء فم الداخلي في خلال حركاته الجائرة، ثم يمتص محل المرض أو الألم، وفي آخر تمثيلته يستخرج من فم لفافة القطن وقد امتزجت باللعاب والدم وأصبحت أشبه بالدودة ويدعى أنه استقصى المرض باستئصال الدودة المسببة له (٢١٥).

ولنعد إلى الطب أو بعبارة أدق إلى التطبيب، عند هنود أمريكا.

لقد كان للطب التجريبي عندهم حقل محدود جداً، وهو حقل الحالات المرضية ذوات الأسباب الخارجية الظاهرة كالجروح، مع قدر من الملاحظات عن تأثير بعض النباتات أو العوامل الطبيعية، وقد كانت الفرما كويبا (الأمريكية)، التي ورثنا منها الكثير من العقاقير المفيدة، نتيجة ملاحظات تعاقبت على مدى قرون. وكان للمريض الخيار بين الطب السحري - الذي كان يمارسه عند الأينكاس (إيشوري Ichuri) وبين الطب التجريبي الذي يمارسه (سانكويوك Sancoyoc)، شأنه شأن المريض المصري في عهد الفراعنة الذي كان له أن يختار بين الكاهن (وعابو)، والطبيب العلماء (سونو)، أو شأن المريض البابلي الذي كان له أن يتوجه إلى (أسيوتو) أو إلى (أسوتو)، أو المريض الصيني إلى ال (وو) أو إلى ال (بي)، كل حسب ميوله الخاصة أو حسب طبيعة مرضه. وكان الخيار نفسه للمكسيكي بين ال (سيكوالس) أو ال (أممن) أو ال (تيستل) وهو الطبيب

العلماني، إلا أن أكثر اللجوء كان للساحر أو الكاهن وليس للطبيب، لأن الأول والثاني كانا يتناولان الأمراض الداخلية التي كانت أسبابها خفية والتي - قياساً على الأمراض الناتجة عن تأثيرات خارجية - كانت تنسب إلى قوى لا مادية، غير مرئية، تنتمي إلى عالم ما وراء الطبيعة، أو إلى الأرواح، أو الجن، أو القوى الكونية.

وبما أن المرض فسر على أنه ناجم عن وجود عنصر غريب في الجسم مستقل عنه، فإن الأعراض كانت، في نظرهم مظاهر ثانوية لهذا الوجود الذي حل بجسم المريض أو امتلكه. وإذن فالتغلب على هذا الكيان الخفي الذي كونه المرض لم يكن متاحاً إلا لمن عرف طرق الوصول إليه أو وسائل التأثير عليه، وقد قال «سوستل» في هذا الصدد:

تبدو أفكار المكسيكيين القدامى وعاداتهم الخاصة بالمرض، والطب، مركباً لا ينفصم من الديانة والسحر والعلم... ولكن، ليس ثمة من شك في أن الأول، ولا سيما الثاني من تلك العناصر الثلاثة، سيطرا على الثالث، فقد كان ال (تيسيتل) رجلاً كان أو امرأة، ساحراً قبل أن يكون طبيباً، غير أنه كان ساحراً خيراً، مقبولاً، ومعتمداً عليه في مجتمع كان يستنكر السحر «الأسود» وهو الذي يبتغى إلحاق الأذى بالعباد.

وقد زار (بارون لاهوتان)، في سنة ١٦٨٥، هنود منطقة كيبك - الذين لم تختلف عاداتهم عن عادات الهنود الأخر - ووصف الطبيب الساحر فقال «إنه نوع من الأطباء، أو بعبارة أصح من المشعوذين، وسبق أن شفى من مرض خطير، فوصل به الجنون إلى حد الظن بأنه أبدي، وأنه يملك قوى تمكنه من شفاء كل الأمراض بمخاطبة الأرواح، طيبة كانت أم شريرة. ومع أن الجميع يهزأ بهؤلاء المشعوذين في غيابهم، ويراهم على أنهم مجانين ضاع رشدهم نتيجة للمرض، مع ذلك يسمح لهم بالاقتراب من المرضى.. يحضر هذا الدجال فيتفحص المريض بدقة ويقول: «إن كانت الروح الشريرة هنا، فإنني سوف أرغمها على الإقلاع بسرعة».. ثم ينزل في خيمة صغيرة أقيمت لهذا الغرض حيث يغني ويرقص ويصيح كالذئب المتوحش. ثم يأتي إلى المريض ويمتص جزءاً من جسده، ويستخرج بعض العظام من فمه، مؤكداً للمريض أنه إنما أخرجها من جسمه، وأن مرضه بسيط، ويهيب به أن يرسل عبيده وخدمه لاصطياد الغزلان ليأكل من لحومها التي لا غنى عنها للشفاء. ثم يقدم للمريض - بالإضافة إلى هذا - عصير بعض

النباتات الملية، غير أن المرضى درجوا على الاحتفاظ بها، مجاملة، دون تعاطيها. وهذه النبذة الأخيرة تعبر عن تشكك المرضى الأزلي في الوصفات الطبية(٢١٦).

أما النزعة الكهنوتية التي سادت المجتمعات التي يسيطر عليها رجال الدين فنقتبس في وصفها ما قاله (كونتنو Contenau) عن طب بابل وهو ينطبق تماماً على هذا النوع من العلاج في كل مكان وكل زمان - قال : « إن الإله هو السيد الحقيقي للإنسان ولكل ما حققه، ويلحق المرض بمن يشاء، وهو الذي يرجع إليه لإخاد حنقه، والشفعة في يد وزرائه وخدمه.. ولذا فإنه من الطبيعي أن ينتمى للطبيب إلى فئة الكهنة، ولا سيما لأن هذه الفئة هي الوحيدة التي كانت على جانب من العلم » (٥٦).

ولذا فإنه إزاء هذه النظرة إلى المرض، يصبح البحث عن مقر المرض، أو عن نوعه من التفاهة بمكان، إذا قورن بضرورة التحقق من الشيطان المؤذي أو من الإله الضارِب، ويتحول التشخيص إلى دراسة للأساطير، ترمى إلى الكشف عن القوى الكامنة وراء المرض، وإلى سبب حلوها بالمرض، وإلى الطرائق التي توصلت بها إلى غرضها.

وقد كان الأمر نديون قبل كولومبس ينظرون إلى المرض، بصفة عامة، على أنه عقاب. فكان أول ما يفعله الطبيب أن يسأل : « هل ارتكبت خطيئة؟ وهذا قبل أن يسأل : أين الألم؟ »، أما إذا كان المريض لا يذكر الخطيئة التي ارتكبتها فعندئذ يقع على عاتق الطبيب اكتشافها.

وكان المرض المصاب بداء إلهي يسمى في لغة الاينكاس والإستيكاس - نتيجة لهذه النظرة المزرية - تنسباً لهويلزتلي Netspalhuiliztli، أى أكل الروث، وكان يرسم - مثلاً في (كودكس بورجيا) - مصاباً بالآلام معوية وسولية وقء دم وإسهال وعدم القدرة على مسك الفضلات(٢١٧) وهذه النظرة لم تشمل كل الأمراض بل استثنى البعض منها، ولا سيما العاهات، التي لم تعد عقاباً، بل كانت - على العكس - علامات تنسبُ بميزات قدسية أو بمواهب طيبة.

وكانت أكثر الآلهة تلعب دوراً طبيًا، وكان في مقدورها إلحاق المرض أو الإبراء منه على السواء، أما في بيرو، فقد كانت هذه القوى مركزة في اثنين من الآلهة : (باشامك Pachamac) و (فيراكوشا Viracocha) (المسافر الخير الذي يهب الشفاء) هذا بالإضافة

إلى جمهرة من الجن ومن قوى خفية مرتبطة ببعض المناطق أو ببعض الأشياء التي كانت موضع عبادة خاصة.

أما عند (المايا) فإن إله الطب الأول كان (اتزامنا Itzamna) (الإله الأحول) مخترع الكتابة، وابن (هوناب) (الإله الخالق)، وكانت زوجته تسيطر على نمو النباتات الشافية. وكان لدى المايا إله للموت والأوبئة، وإله هو «سيد الأطباء التسعة»، وإله للمياه.. الخ.

ونسب الإستيكاس اختراع الطب إلى (كويتر الكواتل Quetzalcoatl) إله المعرفة والخير، وكانوا يقدمون (تومى) إلهة التكهن، ويضحون لها شابة تحمل اسمها. أما إله المطر، فإنه كان مسئولاً عن مرض الاستسقاء، وعن الروماتزم والنقرس والشلل، وكل الأمراض المنسوبة إلى اضطرابات الجو أو الهواء، والقرح، وأمراض الجلد، والإدمان على شرب الخمر، وكانت لهم إلهة خاصة بالجرب وأمراض العيون، وإله لأمراض الأطفال كان يعالج مرضه في معبده باعطائهم شرباً أسود اللون، وثمة إله آخر للعاهات والتوائم، وإله ذو قوى منومة وتكهنية للأمراض المعدية، أما إله الموسيقى فكان مسئولاً عن الأمراض الجنسية التي تحل بالرجال والنساء إذا اقترفوا محرمات جنسية. وخلاصة القول أن الاستيكاس كانوا يختصون بكل نوع من أنواع المرض لها قائماً بذاته.

أما عند الهنود الحمر، فكانت السلطة العليا في يد (الشمس الكبرى) أو (الروح الكبرى) وكان المرض يعزى أيضاً إلى حيوانات أسطورية، أو إنسان مؤذ، أو ميت غير راض.

### النظريات المرضية وفن التشخيص :

إن أول خطوة في العلاج هي التشخيص، وكانت هذه الخطوة، كما رأينا تتخلص في التحقق من القوى الخفية التي سببته، ومن الطريق التي اتخذتها لتحقيقه، وليس من نوع المرض أو مقره.

أما طريق نشأة المرض بسبب هذه القوى، فإنها كانت تتلخص في واحدة من طرق ثلاث هي: ضياع الروح، أو دخول جسم أجنبي غير مرئي، أو نفوذ قوى.

والروح كان يطلق عليها لفظة «توناللي Tonalli» التي تعنى الروح الحيوية، أو قدر الإنسان وقضائه، أو نجمه، وكانت القوى الشريرة تستطيع انتزاعها من الفرد، كما أن الساحر كان يستطيع إعادتها بوساطة آلة جوفاء من العظم المزخرف تسمى (أسرة الروح)، ويعتقد ياركو(٢١٨) أن تفسير المرض هذا كان أقدم التفسيرات التي أخذ بها الأمر نديون.

أما تسرب جسم دخيل، فكان أكثر التفسيرات شيوعاً، ومفاده امتلاك الجسم أو الكائن الدخيل لجسد المريض.

**والتفسير الثالث،** أى وجود ريلح ضارة أو نفوذ جو مؤذ، كان يؤدي عند المكسيكيين معنى وجود تأثيرات مضره غير مرئية تقوم حول الإنسان في بعض الأيام، أو بعض الأجواء، ولا سيما في أثناء الليل، وهذا التفسير يقارب بعض نظريات المصريين القدامى - الذين وصفوا في الجزء السحري من (بردية أدوين سميث<sup>(٢٢)</sup>) ريلح الكاهن، أو ريلح الميت أو ريلح طاعون السنة، وهذا هو الذي أدى إلى تسمية مرض الملاريا من لفظتي Mal aria أى الهواء الرديء. وقد تكون العلاقة الملاحظة بين بعض الأمراض وبين انتشار البعوض أو ارتفاع درجة الرطوبة حول المستنقعات قد أدت إلى هذه النظرية.

أما التشخيص في حد ذاته فإن الطريقة المفضلة للوصول إليه كانت استطلاع البوادر أو عمليات التكهن بوسائل شتى تتطلب معرفة لمبادئها لا يجيدها إلا الكهنة والسحرة. ومن تلك الوسائل أن سكان بيرو كانوا يتفقدون سلوك الحيوانات أو الرسوم التي ترسمها أوراق شجرة الكوكا المتساقطة على الأرض، وكان المكسيكيون يتفحصون الأشكال التي ترسمها بذور الذرة إذا نثرت على قطعة من النسيج الأبيض، أو إذا سقطت في إناء من الماء، وكان سقوطها إلى أسفل الإناء يعد طالع سوء وعمومها أو توزيعها توزيعاً متساوياً يعد فال خير.

وبالمثل فإن هنود الشمال كانوا ينثرون مسحوقاً على سطح سائل، وأوصى (كودكس مالياياكي)(٢١٩) باستخدام القواقع كما يفعل «الفجر» اليوم. ولقد أوصت مراجع أخرى بالنظر المدقق إلى المرايا أو سطح الماء، أو باستطلاع العقد المعقودة على الحبال، فإذا

كانت العقد تنحل ذاتياً كان الطالع حسناً. والمعروف عموماً أن علاقة العقد بتعقيد الأمور أو إيقافها مبدأ شائع في السحر (والنفثات في العقد).

ثم إن كهنة « الأينكاس » كانوا يدعون جسم المريض بختزير رومي حى، ثم يقتلون الخنزير خنقاً فوق موضع الألم، ويستتجون من شكل أحشائه مقر المرض وعلاجه، أو يتكهنون بمآل المرض بقياس ذراع المريض اليسرى بيد الطبيب اليمنى بعد تغويصها في التبغ.

وقد استنبط (الإستيكاس) من مبدأ العلاقة المزعومة التي تربط الكون الأكبر Macrocosm (وهو الكون كافة)، بالكون الأصغر Microcosm (وهو جسم الإنسان) - استنبطوا جداول تحدد علاقات أجزاء الجسم بالأيام، كما أن (الناهوا) ربطوا بين الأرض والماء والمطر والهواء والحيوانات والأحشاء، وهذا يكاد يطابق ما كان يؤمن به الفلكيون والأطباء في القرون الوسطى.

ولكن، بما أن التكهن يفترض اتصالاً مباشراً بين المتكهن وبين عالم الأرواح الخفى، فقد كان من الطبيعي أن يبحث ذلك المتكهن عن وسائل تيسر هذا الاتصال، فاستعين بصفة خاصة بمركبات كانت تضع الساحر أو الكاهن في حالة توتر وهياج وهلوسة. وقد افترضوا أنها، بهذا، تنبه ملكات الكاهن المرعومة وترهف حواسه وتزيد من حساسيتها، ولذا لجئوا إلى نباتات عدة كالبيوتل الذى يحوى مواد مهلوسة، وإلى التبغ والخمور التى كانوا يتعاطونها شرباً أو عن طريق الحقن الشرجية، هذا مع قرع الطبول والرقص والحركات المستيرية التى كانت تحيل إلى مشاهدتها أن روحاً حلت بشخص الطبيب أو المريض.

**العلاج :** وكان قوام العلاج خليطاً من الخبرة، ومن الاعتبارات الروحانية، أو شيئاً وسطاً بينها، وهذا كله بعيد كل البعد عن نطاق العقل، ولكنه مبنى بناءً منطقياً سليماً على بعض المبادئ والمقدمات الزائفة التى يمكن حصرها على الوجه الآت:

١ - عدم التمييز بين الفرد والمحيط، والتخيل أن الإنسان مجرد عضو من جسم كوف شامل هو - كالجسم الأدمى - متضامن الأعضاء يستطاع التأثير عليه بحكم تضامنه

الكامل مع العالم، عند معرفة سر الروابط التي تربطه به.

٢ - إسناد روح خاصة وإرادة مستقلة لكل كائن، والتصور أنها دائمة التدخل في الحياة اليومية.

٣ - تأليه الكائنات والأحداث، كالأنهر والأشجار والكهوف والجبال والبراكين والأعاصير، وإمكان تجسد هذه الكائنات والأعلام المؤهبة في جسد الساحر أو الكاهن، وكان هذا التأليه للكائنات إما طلباً، وإما خوفاً من الكوارث التي تحمل بها.

٤ - عدم إدراك فكرة الموت، وعدم التفريق بينه وبين الحياة، وتخيل الموت على أنه نوم عميق يتابع التوفى من خلاله حياته السابقة، ويستيقظ منه أحياناً ليزور الأحياء في صورة طيف لدى نومهم، وشبح أو رؤيا لدى يقظتهم، يزورهم ليطلبهم بمحسنة وأمل، ومن هنا العمليات الرامية إلى إرضاء الأرواح بتقديم الطعام والقرابين.

٥ - إسناد قوة كامنة إلى الألفاظ، تنطلق من فم المتكلم غير مبالية بشخصيته سالكة طريقاً ذاتية لا عودة منها، ثم الاعتقاد بأن الكلمة التي تصور المدلول إنما هي المدلول ذاته. وبأن اسم الشخص إنما هو الشخص نفسه، وبالتالي بأن معرفة اسم الشخص تسمح بامتلاكه وتكسب سلطاناً عليه. ومن هنا الإيمان بقوة التعاويذ شريطة أن يلتزم عند نطقها بشكلها وبطريقة ترتيلها دون انحراف، إذ إن أقل تعديل فيها يغير من طبيعتها ويفقدتها فاعليتها، وقد يودي بحياة من أخطأ القاءها.

وقد كانت التعاويذ على أشكال مختلفة، منها الأمر بخروج المرض، أو نهى الروح عن إلحاق الأذى به، أو المجاهرة بعدم الإذعان إلى الروح الضارة، أو ذكر اسم المرض، أو التهديد، أو إدعاء الحصانة، أو طلب تدخل أرواح أقوى، أو انتحال ذات الإله، أو تأليه المريض أو أعضائه، أو سرد أساطير الآلهة لمحاولة إعادة أحداثها، أو ذكر اسم المرض، إيقاناً بأن معرفة الأسماء تمنح قوة التحكم في مدلولها.

وكانت طرائق استعمال التعاويذ متباينة فمنها ما كان يستخدم بمصاحبة علاج. ومنها ما كان يتلى في أثناء تحضير الدواء ليضفي على محتوياته صفات علاجية خاصة، ومنها ما كان يرتل على الشخص المشعوذ أو ينطق به على الأحجبة والطلاسم ليحمل قوة

التعويدة وينقلها من الساحر إلى المريض دون استخدام دواء ما. ومن الغريب أن الطبيب أو الساحر - عندما كان يرتل التعويذة - كان يتكلم بلسان الإله تارة، والساحر الأمر طوراً، والمريض أحياناً، متحلاً كل تلك الشخصيات دورياً.

٦ - الاعتقاد بأن حركة رمزية أو تمثيلية تحول - بفعل قوة الساحر - الشبه إلى حقيقة، والحركة على أنواع: فإما تستخدم وسيلة للتعويدة لتنقلها إلى المعوذ له، وإما أن تقوم بلون من التمثيل يتناول الأمر المطلوب لضمان حصوله فعلاً كأن يقلد الساحر حركة الماء أو ينفخ ليرمز عن الهواء.. إلخ، وإما أن تجرى على نماذج تمثل الأمر المطلوب، أو الروح المؤذية.

وقد وصلت هذه الحركات إلى ذروة التعقيد والفرن في الرقصات التوسلية التي شاعت بين الأمر نديين شيوخاً واسعاً، والتي كانت تقام باستخدام الأتعة والملابس التنكرية والريش والألوان الزاهية والطبول وآلات القرع والموسيقى، والتي كانت في أغلب الأحيان تحاكي حركات الحيوانات المؤهبة التي كانت تتوسل إليها. كرقصة الثعبان المشهورة.

٧ - الاعتقاد بإمكان نقل المرض من المريض إلى كائن آخر بتلامسها أو بإجراء طقوس انتقال معينة بينها، شبيهة بفكرة كبش الفداء.

٨ - فرض استمرار التضامن بين الشخص وكل ما امتلكه أو لمسه، أو بين الشخص وصورته.

٩ - استنتاج «الهوية» من التشابه واستقراء المثل من القياس السطحي، والربط بين الشيء وبين شبيهه، وبين الشيء وبين اسمه، والاعتقاد بأن أى عمل أتى بنتيجة في الماضي سوف يأتي حتماً بمثلها في المستقبل، أو أن استعمال حجر أحمر يفيد أمراض الدم، أو أن زهرة صفراء تفيد الصفراء، أو أن نباتاً يشبه عضواً يشفى أمراض ذلك العضو. وفي هذا الصدد قال (سهاجون): «يوجد في هذه البلاد حجارة تسمى حجر الدم، لونها أخضر منقط تشبه نقط الدم. وتلك الحجارة تستطيع إيقاف النزف، وقد جربتها لأن أمتلك أحدها... وعند تقشى وباء سنة ١٥٧٦ سال دم الكثيرين من أنوفهم..»

وكان النزف يتوقف بمجرد وضع تلك الحجارة في أيدي المرضى، وكان يشفى المرض الذى مات من جرائه الكثيرون...».

وبالمثل كان الإستيكاس يعالجون أمراض اللثة بأن يضعوا عليها إحدى أسنان واحد من الموق. وكانت بعض القبائل تعالج أمراض الأذن بأن يوضع عليها أذن حيوان (نانزو) وذلك لقوة حاسة السمع التى يتمتع بها ذلك الحيوان، كما كانوا يوصون بأن يأكل المريض لحم الرخم لعلاج أمراض العيون، وذلك لقوة بصر هذا الطير، أو بأن يتناول عصير نبات أبيض لإدرار اللبن...

\* \* \*

والى القارئ بعض أمثلة من تلك الأنواع من العلاج التى كانت تجمع بين أكثر من مبدأ من المبادئ التى ذكرناها:

(أ) امتصاص المرض بالضم: أو بواسطة أنبوبة مجوفة، وتلك عملية دجل ماهرة، كان المعالج يدعى استخراج المرض الدخيل بوساطتها على شكل دودة أو حجر أو حيوان صغير، وكان يحضر الحجر أو الحيوان ويخفيه فى ثنانيا ثيابه أو فى كيس خفى، وقد أسلفنا بذكر مثل هذه العملية تستخدم فيه لفافة من القطن، وقد شاهد شيئاً كهذا- فى البرازيل حوالى سنة ١٥٥٠ - الفرنسى تيفى<sup>(٢٢٠)</sup>، وكثيرون غيره.

(ب) التعاويذ المصحوبة بالحركات: يقول سوسيتيل<sup>(٢٢١)</sup> فى وصف مثل من علاج الصداع: «يدلك التسييل (أى الطبيب) رأس المريض تدليكاً شديداً وهو يقول أنتم! أيتها التونالى الخمسة (أصابع الطبيب) المتطلعة نحوى ناحية واحدة، وأنتما أيتها الإهتان (كواتو) و (كواكوش) اللتان تهدمان ال (ماسواللى)، سنجد على شاطئ الماء الإلهى، وسنطرح به فى الماء الإلهى». ثم ينفخ على رأس المريض ويصب الماء على رأسه وينادى الماء قاتلا: «تعال ورد الحياة إلى هذا ال (ماسواللى) خادم إلهنا». وفى حالة إحفاق هذا العلاج كان الطبيب يضع تبغاً مخلوطاً بعقار يسمى (شاللتلى) وينطق بهذه التعويذة: «أنا الكاهن سيد السحر، أين الذى يهدم هذا الرأس المسحور؟ أحضر أنت الذى ضربت تسع مرات وسحقت تسع مرات (أى التبغ المسحوق)، سنشفي هذا الرأس المسحور بالدواء الأحمر (شاللتلى)، إن أنادى الريح الباردة لتشفى هذا الرأس المسحور.

يأيتها الريح، إنى أسألك: هل أحضرت الدواء لهذا الرأس المسحور؟». وكثيراً ما كانت تلك الحركات تتسم بالعنف، ويضرب المرضى.

(ج) الاعتراف الطقسي: وكانت هذه العادة شائعة عند الأينكاس والمايا والإستيكاس على السواء. ومن الطريف أن الكاهن كان مقتيداً بواجب السرية، كما أن هذا الاعتراف كان يجرى لا لشفاء المعترف وحسب، وإنما كذلك لأمراض الأولاد والأقارب والرؤساء، وكان يصاحب الاعتراف البصق في الماء\*، وكانت تقام حفلات للاعتراف الجماعية العلنية، ويعترف الشعب في خلالها بخطاياهم لإبراء ال (سابا أينكا)، أى ملك الإينكاس. وكان يتبع الاعتراف والاستحمام مع تقديم القرابين والضحايا، ولم يكن الاعتراف بالخطايا رامياً إلى التوبة وطلب الغفران ولكنه كان أقرب إلى عملية تفرغ ذهني يقصد منه التخلص من شعور الإثم ونقل الخطيئة.

(د) القرابين البشرية: لم تكن القرابين العلاجية الفردية من الوحشية بقدر ما كانت عليه القرابين الجماعية التي اعتاد تقديمها التولتك والإستيكاس، بل كان الإله المستشار - عن طريق الكاهن أو الساحر - يكتفى بطلب تضحية جزئية أو رمزية، مثل إجراء قطع في الأذن، أو خز عضو أو جفن بشوك نباتي، أو احتراق اللسان بشوك الصبر، ثم وضع الدم المسكوب عند قلمي الإله أو صبه على الطريق أو على أرضية المعابد. وهذه الجروح كانت تصل من الخطورة إلى حد بتر الأصابع. وهناك رسوم وتمثال من الخرف تمثل هذه العمليات، وقد نقشت أو رسمت على سبيل الاستبدال أى استبدال رسم العضو مبتوراً أو موحزاً، ببتير أو خز العضو ذاته.

(هـ) استعمال المواد المقيئة أو المنفضة: لإبعاد الشيطان، كالفصلات والنباتات العفنة، وكذلك عملية التدخين، كما روى (تيودور دي برى): «يلقى المرضى على بطونهم، وتلقى بعض البذور على النار، فيتسرب الدخان إلى أفواههم وأنوفهم ويسرى في الجسم فيطرده المرض»<sup>(٢٢٢)</sup>.

(و) التريئة: لاستئصال روح المرض من مقرها بلخ (رسم ١٣ - ٣

و ١٣ - ٤).

\* قارن بالعبارة الشعبية: «نف من بفق» ١

(ز) وإذا تفشى المرض على شكل وباء أرسل الجنود المدججون بالسلاح في المدن والطرق والشوارع، يصيحون ويقومون بحركات هجومية بأسلحتهم، لقتل عناصر المرض وطردها، وكانوا يتابعون هذه الحرب الوهمية حتى يبلغوا نهراً أو جدولاً، فيقتلون فيه مما يكون قد لحقهم من تلك العناصر.

(ح) التمايم: وكان الاعتقاد في خواص بعض الأشياء العلاجية راسخاً عند شعوب أمريكا قاطبة. ومن تلك الأشياء: العقود المصنوعة من الأصابع الأدمية المتوردة، والصفن الأدمى والأسنان والأقنعة لتخويف العفاريت، وتمائيل الحيوانات الحارسة الطوطمية.

لم تكن تلك الطرائق عديمة الفائدة، ذلك أنها كانت تحدث في المرضى تأثيرات نفسية قوية قد تشفيهم وقتاً قصيراً، هذا بالإضافة إلى أن الأطباء كانوا يقدمون إلى مرضاهم في خلال هذه العمليات عقاقير وأدوية، سزى فيما بعد أنها كانت فعالة في كثير من الأحوال.

هذا، وقد كانت مزاولة السحر الطبي، مع ما فيه من الشعوذة والسحر، موضوعة تحت رقابة حكومية مشددة، تعاقب كل من الحق الأذى بمرضاه. وروى (ساهوجون) أن الأطباء الذين اتضح تكرار إخفاق علاجهم يقتلون بتصويب سهم إلى رقابهم.

أما في بيرو - فكانوا يدفنون أحياء، وكان الحكم عليهم عند الإستيكاس من اختصاص مجلس الحكماء، فلا تعجب إذن من فاعلية علاجهم أو من إعجاب الأسبانين بالطب المحلي ورفضهم استدعاء أطباء من أوربا، ذلك لأن الأطباء المحليين كانوا أمهر منهم، فنحن نرى أن (كورتس) في سنة ١٥٢٢ طلب إلى ملك أسبانيا تحريم هجرة الأطباء الأوربيين إلى المكسيك لأنهم قليلو الفائدة. وكان هذا التحريم استثناءً فريداً لسياسة الإداريين والقساوسة الرامية إلى محو آثار حضارة البلاد الأصلية، بل لقد وصل الإعجاب بهم إلى إفقاد بعثات من أوربا لدراسة الطرائق العلاجية المحلية، وبصورة خاصة لمعرفة العقاقير التي كانت تأتي بتلك الفوائد.

والآن بعد أن راجعنا نظريات هؤلاء الأطباء وآراءهم وطرائقهم السحرية والكهنتوية، علينا أن نتفحص مدى معلوماتهم العلمية، وقيمة علاجاتهم التجريبية.

## معرفة الجسم وأعضائه :

في صدد طب هنود أمريكا نستحسن أن نعبر بـ (معرفة الجسم وأعضائه) على لفظة «التشريح»، وذلك لما في هذه اللفظة الأخيرة من الإشارة إلى مزاوله عمليات تشريح منظمة ترمى إلى الكشف عن شكل الأعضاء وأوضاعها، فتلك عمليات لم يمارسها أولئك الهنود.

أما شكل الجسم الخارجى فإنه - بطبيعة الحال - كان معروفاً. غير أن الأمرين لم يعرفوا عن الأحشاء الداخلية إلا ما رأوه عند تفحص الجرحى والضحايا البشرية، وعند إجراء عمليات التحنيط وتشريح الحيوانات، وهنا يجدر بنا أن نصف الدفن والحنيط وصفاً مقتضباً لإلقاء الضوء على هذه العادات وعلى المعلومات الطيبة التي تم عليها.

لقد حرص القدماء دائماً وفي كل الأصقاع على حفظ أجساد الموتى ودفن الفناء عنها. لأسباب دينية قهرية، وقد اختلفت الوسائل المستخدمة لهذا الغرض باختلاف الشعوب والقبائل.

ففي بيرو - إذا كان المتوفى عضواً من أعضاء القبيلة - كان يدفن بأكمله، وتدفن معه ممتلكاته العادية وبعض الأطعمة وذلك لثنيه عن العودة إلى عالم الأحياء. وفي مدينة كويتو اعتاد هنود قبيلة (كوارا) توصيل القم إلى الخارج بوساطة أنبوبة جوفاء لتمكين الميت من التغذية عن طريقها.

وخص (المابا) بالإحراق للموتى من النبلاء، أما غيرهم، فكانت تملاً أفواههم بمحبوب الذرة، ثم يدفنون في وضع الجنين داخل الرحم، أى بشئ الركبتين تحت الذقن، أما الملك وحده فكان يحفظ جالساً على عرش من الذهب في قصر (كوزكو) ويعرض أمام عباده ورعاياه.

وفي الأرجنتين كان الموتى يدفنون داخل جرار كبيرة كالمى الأجسام.

على أن عملية التحنيط لم تصل قط إلى ما وصلت إليه من الكمال عند المصريين القدماء، وإنما اكتفى بتفريغ الأحشاء ثم بعرض الجثة للدخان، أو بتجفيفها بدون تحضير

ماء، أو بعلاجها بالثانين، أو بأكسيد الزنك، أو بخلصة النعناع أو بأصماغ وبأشباه قلوبيات مختلفة.

واختلف الإستيكاس عن هؤلاء في إنهم كانوا يحرقون الجثث، ما عدا في حالات الوفاة من جراء ولادة، أو نتيجة لمرض جلدى، أو استسقاء، أو صاعقة، أو الغرق، فتلك وفيات نسبت لعوامل جوية. وبالتالي، كانت تتمتع بطابع مقدس. وفيما عدا ذلك فإن رماد الموت كان يوضع في آنية خاصة يصحبه حجر كريم يمثل القلب. وقد حاكاهم في ذلك شعب ال (تاراسك) الذى كان - فوق ذلك - يدفن أقارب الميت المقربين أحياء بعد تخديرهم بالخمر.

أما إذا كانت الجثة جثة عدو أو ضحية قدمت قرباناً للآلهة، فقد تحم الاحتفاظ بالرأس أو الجمجمة على سبيل التحفة. وكان الإينكاس يستخدمون هذه الجماجم كخوساً للشرب. وقد بلغ عدد الجماجم التى وجدت في مكسيكو عند الفتح الأسباني ٩٢,٠٠٠ كما قال بعضهم و ١٣٩,٠٠٠ كما قال آخرون. وما تزال عادة حفظ الرؤوس المنكشمة شائعة بين هنود الجيفارو Jivaro، وذلك بعد تحضيرها بطرق خاصة أساسها، قبل كل شيء، إزالة عظام الجمجمة عن طريق فتحة في الرقبة مع الحفاظ على سمات الوجه بما فيها الأنف والحواجب والجفون والشعر، وعلاج الأنسجة الرخوة بمواد تضمن حفظها، وتكرار غمس الرأس في حمامات متوالية حتى يصل حجمه إلى حجم رأس المولود الجديد.

وعملياً تفرغ الجسد كانت تجرى أيضاً على الأحياء في ديانة (الإستيكاس) القاسية وكانت هذه العملية تعد فرضاً نحو إله الشمس وضرورة لإبقاء الجنس البشرى سليماً. وقد تطورت هذه العقيدة حتى آمن المايا والتولتك والإستيكاس بأن الموت ينجب الحياة في دورة أبدية لا مفر منها، وأن تضحية بعض الأحياء هى الوسيلة الوحيدة لضمان تجديد حياة الآخرين، وتحقيق أبدية الكون. لا غرابة إذن في تقبل الضحايا لهذا القضاء بالرضا، وفي إيمانها بأن هذا العذاب يجعلها جزءاً من الإله.

ومن السخرية بمكان أن حروباً (سميت حروب الأزهار!!) كانت تنشب مجرود الحصول على أسرى، في أوقات وتواريخ تعينها التقويمات الدينية. ففي الشهر الثانى من

السنة المقسمة إلى ثمانية عشر شهراً، كان الكهنة يرتدون جلود ضحاياهم البشرية لتكريم إله المسلوخين (كسيبي توتك Xipe totec) (شكل ١٣ - ١)، وفي الشهرين الثالث والخامس، كانت تضحي الأطفال (للإله تلالوك) بغية الاستسقاء، وفي الشهر الخامس يتحم أن تكون الضحية فتاة تمثل إله الأذرة النامية، وفي الشهر العاشر - للاحتفال بحصاد الفواكه - كانت تذبح الأسرى جماعة في أسلوب بشع، يتخلص في إحراقهم نصف إحراق ثم في انتزاع قلوبهم وهم ما يزالون على قيد الحياة. وفي الشهر الثامن عشر كان يضحي بعدد كبير من الأسرى والأهلين المربوطين على سلاسل. أما قطع الرأس الطقسي فيستبق لحفلات نادرة كالتى تقام عند توديع فصل الخريف.

هذا بالإضافة إلى حفلات أخرى مماثلة في مناسبات عدة، كتوديع ملك أو ذبفه، أو لإبعاد الأوبئة، وقد بلغ عدد الضحايا، في بعض هذه الحفلات، رقم ٢٠,٠٠٠ في السنة، وقال البعض أنه بلغ في منطقة مكسيكو وحدها ٧٢,٣٤٤، وذلك كله في خلال أربعة أيام. وقد روى الأسبان أن رائحة الدم في شوارع مكسيكو، عند دخولهم هذه المدينة كانت لا تطاق.

ثم أن الضحية كان يطاح بها من قمة المبدع الهرمي، ثم يرقص سادن الطقس رقصة دينية مرتدياً جلد الضحية المسلوخة. ثم تسلق الضحايا في قدر كبير، ليتغذى منها الكهنة بعد حجز القلوب للألهة والأحشاء للثعابين المقدسة<sup>(٢٢٣)</sup>. وقد استمر أكل اللحوم البشرية الطقسي في ديانة بعض قبائل البرازيل حتى القرن السادس عشر، وعند بعض الهنود الحمر حتى القرن الثامن عشر، ولئن كانت هذه التقاليد الشرسة منتشرة بين كل شعوب أمريكا فهي لم تبلغ مثل هذا العنف لدى غير الإستيكاس، ومع ذلك فإنها تتناقض كل التناقض وما هو معروف عن ترفه تلك الشعوب، ورفعة فلسفتهم. حقيقة أن عقائدهم تفسرها ولكننا لا نجد فيها مبرراً.

يبقى علينا وصف عملية التعذيب بانتزاع القلب كما وضحت في النصوص والرسوم التشریحية التى وصلت إلى أيدنا، للمعلومات التشریحية البدائية التى تم عليها كانت الضحية - رجلاً كانت أو امرأة أو طفلاً - تجرد من الثياب، وتخدع تخديراً خفيفاً ببخ مسحوق ال (ياوهتلى) على الوجه، وتلقى مثنية إلى الخلف على هيكل محذب الشكل (شكل ١٣ - ٢)، ثم يجيء الكاهن مرتدياً ثوباً أسود، ومفكوك الشعر، ويشق الجزء

الأسفل من نصف الصدر الأيسر بواسطة سكين من الزجاج البركاني الأسود وبعد الفتح حتى يشمل أعلى البطن إلى أسفل الضلوع فيفتح الصدر كالرمانة الناضجة (حسب وصف بعض المؤرخين)، ويدخل يده في عمق الجرح ويوجهها إلى أعلى ليخترق الحجاب الحاجز ويمسك بالقلب والتهور فينتزعها بعنف من موضعها (شكل ١٣-٣). وتدل التصاوير على أن القلب كان ينتزع مع الغدة التوتية والشرايين الكبيرة التي تنفرع من الأورطا..

وسبب المدلول الديني للقلب، أدخلت صورته في زينة التحف وفي الزخارف الرمزية، كرسم لنسر يأكل قلبا، أو رسم آخر للنمر الأمريكي (جاجوار) وهو يلتهم طفلا من القلوب، أو كعقد القلوب الذي يزدان به تماثيل الإله (كواتليكو) الضخم المودع في متحف مكسيكو.

وما من شك في أن هذه العادات الوحشية عرفت الكهنة بشكل القلب والقصبه الهوائية والأوعية الكبرى والرئتين. وما يروى عن عوائد هذه الشعوب أن سيدة انتزعت في أثناء معركة قلب عدو ورثية، ونفخت في قصبته لنفخ الرئتين، ثم رفعتها على رؤوس الأعداء بشكل جائر لترعبهم.

إلا أن معزفتهم كادت تتوقف عند القلب. ولم يخصصوا الكبد بأى اهتمام في نظرياتهم الطبية. أما الفنانون فإنهم لم يهتموا إلا بالعظام. غير أن تصاويرهم بعيدة عن التمثيل التشريحي الواقعي كل البعد، ولا تزيد قيمتها عن رمزها للموت وللحياة التي تتجم منه. وهذا واضح من عدد التصاوير والنقوش التي يمثل نصفها إنساناً حياً نصفها الآخر هيكل عظمياً وما يزال الصبيان المكسيكيون إلى اليوم يلعبون بالعظام ويرسمون الجهاجم على اللعب والكعك في أعيادهم ولا يعيرونها أى معنى من المعاني الخزينة.

والعادة الثانية التي أدت إلى معرفة شيء من التشريح هي عادة سلبخ الآدميين التي عرفت الإستيكاس بشكل العضلات السطحية والأوعية. (شكل ١٣-١).

وإلى هذا فإنهم ميزوا بين الشرايين والأوردة، وكانت لها أسماء مختلفة، والغريب أن الأولى سميت (أيشيوتل أيوى Ichiyotl Ioui) أى أوعية الهواء أو الروح، وهذا يقابل اسمها باللغات الأفرنجية (artery) المشتقة من (air، هواء)، لاعتقاد القدماء أن الشرايين إنما

تحمل هواء. ثم إنهم قالوا إن الشرايين موزعة في كل الجسم، وإنها غير ملونة، سمكية، توصل الدم، تنزف بغزارة، نابضة، ترتفع وتنخفض وتنفرع. أما الأوردة - وكان اسمها - «أوعية الدم» - فكانت تتميز بنحافة جدرانها. وكانت لديهم لفظة تدل على أوعية بيضاء في نحافة الورق، وقد تكون أطلقت على الأوعية اللمفاوية، وقيل عن الأعصاب أنها بيضاء كالخيوط، أما وظائف أعضاء الحس فكانت مجهولة، ولم يعرف دور المخ وإن بدا أنهم جعلوا له شأنًا في التفكير.

### وظائف الأعضاء :

لم تعد معرفة المكسيكيين، في ميدان الدورة الدموية، أن الدم يجري من القلب إلى الشرايين على شكل حركة ضاربة وإن له دورًا أساسيًا في الحياة. وقد عرفوا النبض، كما أن هذه المعلومات لم تعد الحدس بعلاقة ما بين الأمعاء والمهضم، دون الوصول إلى تفاصيل هذه العملية.

ولم يدرك المكسيكيون وظيفة الكلى الحقيقية وأسندوا إليها الاشتراك في الوظائف الجنسية وأخضعوا عملية الانجاب لتفسيرات أسطورية لم تتعرض للغدد الجنسية بشكل واضح. أما فن الولادة فقد تقدم تقدمًا بالغًا.

### علم الأمراض :

لقد أسلفنا القول وناقشنا نظرية المرض العامة التي أخذت بها هذه الشعوب وهي التي تعزو الأمراض إلى الخطيئة وتنسبها إلى العقاب والجن والأرواح، وقد قسموها، حسب موضعها الظاهر، من الرأس إلى القدمين كما فعل المصريون حسب (بردية أدوين سميث ٢٢) والأوربيين حيث عهد مورجاني (٢٢٤)، أو حسب عوارضها: القرع الصداع، الإسهال، قيء الدم، صعوبة التنفس، الأورام، الاستسقاء، دون التعرض إلى الأحشاء أو الأعضاء المسببة للعارض أو إلى الأسباب الحقيقية.

وكان فحص المريض مبسطًا للغاية. ومع ذلك فإن خبرة المعالجين المتراكمة على مر القرون أملت عليهم ملاحظات مفيدة، ولا سيما في معرفة مآل المرض أو كما سماه العرب، «تقلمة المعرفة». يقول (الكودكس باديانس Codex Badianus) (٢٢٥): «إن

الطبيب النابه يستطيع معرفة هل المريض سيبراً أو أنه سيموت، وذلك بملاحظة الأنف والعينين : فإذا كانت عينا المريض محتقتين بالدم، فإنه سيحيا يقيناً، أما إذا كانتا شاحبتين ومفرغتين من الدم فيصح الشك في المآل. وكانت منبثات الموت هي : الأسوداد حول العينين، والبرودة، وانكماش أعلى الرأس، وذهاب لمة العينين، ونحافة الأنف كالعصا، وتصلب الفك، وبرودة اللسان، وعدم استطاعة تحريك الأسنان، وتركب القلاح عليها. كما يدل على اقتراب الوفاة انسكاب دم قائم، وإطباق الأسنان وتلون الوجه بلون رمادي،... وإذا دهك صدر المريض بخشب الصنوبر، أو إذا وخز بسنة ذئب ولم يستجب المريض لهما، فإن الوفاة لا مفر منها».

وكان يعبر عن هذا بالعبارة الآتية : «لقد تجاوز المريض احتمال الشفاء». ومن الطريف أن هذا الوصف الدقيق للملامح الموت يذكرنا بوصف (أبقرط) لها وبما نسميه اليوم السمات أو السحنة (الأبقرطية، غير أن أمثال هذا النبذة الجميلة نادرة.

وقد قدر (رويس) (٢٢٦) عدد الأمراض التي عرفها (المايا) بسبعة وثلاثين وأربعمائة ولكل مرض اسم وعلاج. أما في بيرو فقد قدر (هرناندر) (٢٢٧) الأمراض الشائعة بمائتين، غير أن الأوصاف تنقصها الدقة، وذلك أمر يجعل التعرف عليها من الصعوبة بمكان.

ونسب ضيق التنفس، في بيرو، إلى تسرب نفس الموق في أجسام الأحياء، أو إلى فساد الهواء، ووصفوا الزكام. وقال (جويرا) (٢٠٧) إن (المايا) ميزوا بين السعال السطحي وسببه في الحنجرة، وبين السعال العميق الناجم عن الشعب أو الرئتين، وإنهم وصفوا الربو، والنزلات الشعبية، والدرن الرئوي الذي سموه «مرض التجفف»، وأطلقوا على كل من تلك الأمراض اسماً خاصاً.

وقد يصح أن الهنود الذين اعتادوا سن حجر السيليكس في جنوب غرب الولايات المتحدة أصيبوا بالسليكوز<sup>(٢١٨)</sup> أي تحجر الرئة الناتج عن استنشاق غبار السليكا.

وقد عرف (المايا) كيف يفرقون بين الإغماء والصرع، وسموا الدوالي الأوردة العقدية، وأطلقوا أسماء خاصة على الذبحة الصدرية وعلى أمراض القلب المفاجئة (شيبيل chibil وتزيميل tzemil). أما أمراض تصلب الشرايين فلم يدل تفحص الجثث على انتشارها انتشاراً واسعاً، ولذا فإن هبوط القلب المصحوب بالاستسقاء، الذي نجد له أوصافاً

وتصاوير ورسومًا عدة، كان في أكثر الأحوال ناتجًا عن المرض الطفيلي المسمى اليوم بمرض (شاجاس).

على أن الأمراض الأخرى لم تختلف عن أمراض البلاد المتخلفة أو عن أمراض البلاد الحارة، بما فيها الإسهال، والإصابة بالطفيليات، والدوسنتريا، والحالات الشبيهة بالكوليرا، والقيء، والصفراء، أما قء الدم فيبدو أنه كان شائعًا وربما كان عرضًا من أعراض الحمى الصفراء التي يجوز الأخذ بقدمها في هذه البلاد.

إلا أنه ليس في استطاعة المؤرخ تحديد نسبة تفشى الدرن. ومن المعروف من البقايا البشرية ومن تصاوير عدة، أن درن العظام انتشر بينهم قبل دخول الأوربيين، إلا أن دخول هذه العناصر الجديدة الحاملة لسلاسل مكروبية غير معهودة نجم عنه ظهور المرض على شكل وبائي حاد، حصد آلافًا من الأهلين.

أما الصرع وقد سمي «المرض المطيح الشبيه بالموت» (شكل ١٣-٣)، فهم لم ينسبوا إليه معنى سيئًا كما فعل الإغريق واللاتين، بل كان له عندهم وضع خابض على أنه أحد الأمراض المقدسة وقيل إن سببه مسة إلهية. وإليك وصفة لعلاجه: «هكذا علاج لكل من يقع، ويهز ذراعيه بعنف ويصق لعابًا، يجب سحق قرن غزال وإعطاء المسحوق للمريض ليشربه، وإلا فتؤكل خصيتًا ديك رومي (أو حبشى) مفرومة في الماء، وإذا تكرر الداء، يفصد وريد الأذن ويقدم شرابًا للمصاب، أو يقتل كلب وتستخرج صفراؤه لشرها».

وقد يصح أن أهل بيرو عرفوا التانوس، كما أنهم نقشوا شلل الوجه على إناء مودع بمتحف برلين، وفصدوا بين الحاجبين أو على الرأس للصداع، ووصف سكان جبال الأند الشاهقة - في دقة بالغة - عوارض (داء الجبال) الذي ينتاب المسافرين على المرتفعات نتيجة لحفة الهواء.

وهم لم يسلموا من الاضطرابات النفسية التي نسبوها - بطبيعة الحال - إلى الأرواح وعالجوها بالعزلة التامة، وقد وصفوا أنواعًا من هذه الاضطرابات، كالملاخوليا والهلوسمة والتخيلات، والهباج.

ومن عجائب حضارتهم أن المايا كانوا يبحثون على الانتحار ويشجعونه لأسباب دينية،

لأنه - في رأيهم - كان يضمن اللجنة للمتحرين، وكانت ترعى الانتحار إلهة (اكستاب Ixtab) التي صوروها معلقة على قبة السماء بجبل ملفوف حول رقبتها.

ويبدو أن المكسيكيين أدركوا دور الحالة النفسية في تسبب العوارض الجسمية، فلقد روى (جوست 1928) أن الخطباء كانوا يستهلون خطبهم قائلين لمستمعهم: «أنا لا أريد أن أدخل في أنفسكم الملل، أو أسبب لكم الصداع أو آلام المعدة»، كما أن الإستيكاس عرفوا ما يصيب الأولاد من الانزعاج عند ابتعادهم عن الوالدين بعد الزواج فاعتادوا تقديم هذه النصيحة: «أنت يا من تحم عليه ترك والدك ووالدتك، أحرص على ألا يتعلق قلبك بهما»، كما حرصوا على إبعاد الخواامل عن كل أسباب الانزعاج النفسي.

أما المرض الذي كان متفشياً تفشياً غير عادي فهو الاستسقاء، وقد أطلق عليه في بيرو عبارة مؤداها «لقد جف النبع» وهي عبارة تشير إلى محاولة إيجاد تفسير للمرض، وكان يعالج أما بمدرات البول التي استخدموا منها عدداً كبيراً، أو بوخز الأنسجة المتورمة أو تشريطها، ودرجوا على أن يضعوا المصابين به تحت رعاية (إله المطر). وبذلك يستحق من توفي من جرائة اللجنة (تلا لو كان)، شأنه شأن من مات غريقاً أو مصعوقاً. وقد يكون سبب انتشار الاستسقاء هو مرض (شاجاس) وهبوط القلب الناتج عنه.

وقد وجدت آثار الروماتيزم المزمن في نسبة من الجثث جد مرتفعة، تتراوح بين 13٪ و 40٪. وقد خصصوا لآثاره في الجسم تحفاً عدة تمثل التواء الرقبة، أو روماتيزم الكتف، أو النقرس. ولقد قال عنها (سهاجون) (1922): «لقد تصور الإستيكاس أن بعض الأمراض التي تبدو نتيجة للبرد تأتي من الجبال، أو أن هذه الجبال تستطيع شفاءها، ولذا كان المصابون يندرون بإقامة الحفلات وتقديم القرابين إلى أقرب الجبال إليهم. وكان العلاج: الوخر بعظام الحيوانات، ثم بوضع نباتات أو لصق منها».

ومن الآثار البشرية التي تفيد دراستها عالم السلالات: سمك عظام الجماجم من النوع ذاته الذي ينجم عن أمراض تكسر الدم، كمرض (كولي Cooley) و (الأنيميا الكروية spherocytosis)، وفي هذا ما يشير إلى انتشار فصائل غير طبيعية من الهيموجلوبين، وهي ظاهرة اتخذت دليلاً على طريق المحدثار السلالات البشرية وانتقالها من قارة إلى قارة.

**ومن الأمراض الأخرى:** البواسير، وقد نسبت إلى ملامسة زهرة بيضاء، والزهرى الذى يقال إنه وصل إلى أوروبا من هذه البلاد، وقد ألمه الإستيكاس وسموه مرض الزهر أو مرض التبلأ والسيدات، والسيلان، ومرض الفيل، والأورام، وكانوا يميزون بين أنواع كثيرة منها، وقرح الوجه (ويرجع أن سببها نوع من اللشائيا)، وسرطان الثدي، وسنشير إلى بعضها فى شىء من التفصيل فيما بعد.

وقد انتشر تضخم الغدة الدرقية وما يزال متفشياً إلى اليوم فى كل هذه البلاد نتيجة لنقص اليود فى الملح على سفوح الجبال البعيدة عن المحيط. وقد عثر على تحف تملكه وعلى آثار بشرية لعالمقة وأقزام.

### التغذية :

فى هذا الميدان تدل الآثار الفنية على انتشار البدانة، وبصورة خاصة اكتناز الأرداف عند النساء وقد يكون فى تمثيلها على هذا النحو رمز (لإله الإنجاب والخصب) كما كانت الحال عند كل الشعوب البدائية.

وقد أوصى سكان جواتيمالا بتسمين الأجسام، وكانوا، على العكس يعدون النحافة بلاءً خطيراً، وينظرون على أنها نتيجة لاستيطان روح دخيلة فى الشخص النحيف. ولذا مثلوا لها تماثيل مثيرة وفى غاية الواقعية، توجد منها أمثلة فى الكثير من المتاحف. ولا غرابة فى أن ينتشر الهزال والنحافة بين الفقراء وغذاؤهم الأساسى الأذرة، وهى بذرة تفتقر إلى عناصر غذائية أساسية. غير أنه لم توجد آثار للبلاجرا التى تصيب عادة أكلى الذرة، ولا لمرض البرى برى (نقص فيتامين ب أ)، ولا للاسقربوط (نقص فيتامين ج)، ولئن أصيب به الفاتحون الأورييون أحياناً بشكل وبائى، فإن - على العكس - كان سبب مناعة الهنود استهلاكهم أطعمة تحوى كميات كبيرة من فيتامين ج.

وقد حرم السكر تحريمًا شديدًا. ولقد كان يعاقب مرتكبه بالشنق أو بالقتل ضرباً بالعصى، أو بالطرد من المدينة، وليس أدل على النظرة المزرية التى كان ينظر إليه بها من الخطبة التى اعتاد الملوك إلقاءها عند تقلدهم الملك: «أن تعاطى مشروب ال (اكلى octli) والخمر، أساس كل السيئات، وعلّة كل الخلفات والشورات والاضطرابات فى المدن والممالك.. ويدفع إلى الزنا وهتك الأعراس والسفاح بالقرى والسرقة والشهادات

الكاذبة والافتراء والمشاجرات وارتكاب كل الجرائم».

على أنه قد استثنى من هذا الحكم الشيخ، وفئة من الكهنة. فرض عليهم احتساء الخمر والتأمل الديني في أثناء بعض الأعياد، متبوعًا بالزنا الطقسي بوصفه نوعًا من العبادة.

### الأمراض السارية والأوبئة:

كان سكان القارة الأمريكية، بصفة عامة، يتمتعون بصحة جيدة، وهم لم يعرفوا الأوبئة إلا عندما تعرضوا للأمراض التي وردت إليهم مع الفاتحين الأوربيين وعبيدهم الأفريقيين، وكانت تعوزهم المناعة ضدها بسبب عدم تعرضهم لها قبلاً. ولذا فإن عدد ضحايا وباء سنة ١٥٧٦، الذي لم تحدد طبيعته بعد، بلغ مليونين من المكسيكيين. وقد انخفض عدد سكان جزيرة إسبانيولا Hispaniola الذي بلغ ١٠٠,٠٠٠ عندما رسي بها كولومبس... إلى ٢٠٠ فقط بعد مرور مائة سنة.

ولكن ليس معنى هذا أن الهنود نجوا نجاة تامة من الأوبئة قبل عهد كولومبس. وقد نشر (سومولنوس داردوا) (٢٢٩) معلومات قيمة عن الأوبئة التي تفشت في المكسيك في القرن السادس عشر، ويبدو أن الهنود عانوا قبل سنة ١٠٠٠ م بقليل، ومرة ثانية حوالي سنة ١٤٨٠ م من وباء يصعب تشخيصه الآن.

وقد نسب الإستيكاس الأوبئة إلى سهام إله نجم الصباح أو (سيد بيت الفجر) وقالوا إنه استطاع النبوءة مجدوثها في تواريخ معينة من تقويمهم التكهني. ومع ذلك فقد فطنوا إلى دور البعوض في تفشي بعضها، وقالوا إن هواياما كاباك Huayama Capac ثان ملوك أسرة الإينكاس، توفي من جراء وباء فاتك نشره بعوض أسود، أطلقه رسول سرى من لدن الإله الخالق. ولكنهم - ولا شك - فطنوا إلى فكرة العدوى، فقد ذكر (جويرا) أنهم خصصوا بابًا في كتبهم لحميات معدية وصفوا عوارضها الأولى، والعرشة التي تتبعها. إلخ. وقد استقبح سكان بيرو جو الشواطئ وحرصوا على بناء منازلهم بعيدًا عن المستنقعات، وُسنوا قوانين تحم عزل المصابين بالأمراض التي ظنوها معدية.

إلا أنهم نجوا من الكوليرا والرمد الحبيبي، وقد يجوز الشك في إصابتهم بالقرمزية

والتهاب النكفية والجديري والحصبة والدفتريا. وهم لم يصابوا بالطاعون إلا في القرن التاسع عشر.

ومن الأمراض التي تفشت بينهم : التيفوس، وقد كأكد (فرنسيسكو برافو Francisco Bravo) أنه مرض قديم وسماه المرض الوحشي(٢٣٠). ويظن (أكركنخت Ackerknecht) أن بعض الأوبئة السابقة لفتح كورتس، والتي نسبها المؤرخون إلى الحمى الصفراء، كانت في الحقيقة مرض التيفوس(٢٣١). وقد اتخذ التيفوس صورة فتاة في سنة ١٥١٩، إذ أودى بحياة حوالي ٢٠٠,٠٠٠ شخص في بيرو، وذكر (توركويمادا) ٨٠٠,٠٠٠ ضحية في سنة ١٥٤٥، ولكن أشد مظاهره تجلّت في الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

ومن الأمراض التي خصت أمريكا الجنوبية مرضاً (التبول Verruga) واللسهانيا الجلدية. والفيروجا مرض ينتج عن عدوى بنوع من الريكتسيا يسمى برتونلا Bartonella bacilliformis، ويسمى أيضاً حمى وادي أوروبا، أو الأنيميا البيروفية، وهو يتسم بأنيميا، وطفح مميز، وهتاك أوان من الخزف رسم عليها مصابون بهذا المرض.

أما مرض ليشانيا الجلد فإنه محصور في منطقة معينة في البرازيل وجبال الأند، ويسمى أيضاً (أسبونديا espundia) أو (أوتا uta)، ومن نتائجه تقرح أجزاء من لحم الوجه وسقوطها وتشوهات قبيحة، الأمر الذي يسهل التعرف على صورها في أواني الإينكاس والموشيكا (شكل ١٣-٥)

أما الطفيليات الأخرى فإنه يصعب بطبيعة الحال العثور على أي برهان يدل عليها، على أن بويضات عدد منها وجدت في بعض الموميات، ومع ذلك فإنه لا يمكن التأكيد بأن الإنكلستوما الأمريكية necator americanus، أو الفلاريا، أو البلهارسيا، أو الكيس الدودي، وجدت قبل الفتح الأسباني، هذا مع أن بعض التمثيل تمثل ورم الساقين والقبيلة اللتين قد تنتجان عن الفلاريا، ومع أن بعض المؤرخين ينسبون تدهور حضارة الأنكا إلى مرض (شاجاس).

تبقى بضعة أمراض أثارت جدلا طويلا، وكان في بعض الأحيان عنيفا، أهمها الجذام والجديري والزهري(٢٣٢). والملاريا والحمى الصفراء.

(أ) الجذام: لقد ترجمت بعض الألفاظ المحلية بالجذام دون برهان قاطع يؤكد صحة هذه الترجمة. وقد ورد نص في مؤلفات ساهاجون يصف بعض عوارض الجذام كتآكل الجفون، إلا أن هذا النص - وكذلك شكل بعض تماثيل الخزف أقرب إلى مرض «أوتا» منها إلى الجذام. ويعتقد أغلبية المتخصصين في الأوبئة أن الجذام ورد إلى هذه القارة من أوربا عند الفتح.

(ب) الجدري: ومن المتفق عليه أن أول وباء جدري في أمريكا هو الذي حدث في شبه جزيرة يوكاتان في سنتي ١٥١٥ و ١٥١٦، أي بعد وصول الأسبان بأربع سنوات، ثم إنه تفشى في الجزائر الأمريكية من ١٥١٧ إلى ١٥٢٠، وعاد وأصاب مدينة مكسيكو في سنة ١٥٢٠. ويبدو أن العدوى كان منبعها عبداً أفريقيًا معتوقاً أحضره معه الأسبان نرفايز. غير أن (مارتنز دوران) وصف أخيراً قطعة من الخزف وجدها في جواتيمالا، تمثل وجهاً بشرياً مغطى بالدمامل، أبدى برأيه: أن المرض كان مستوطناً قبل وصول الأسبان.

ولقد قال المؤرخون أن هذا المرض كان أقوى حليف للأسبان في فتحهم، بسبب سرعة انتشاره وارتفاع نسبة الوفيات التي سببها والتي بلغت من ٥٠٪ إلى ٩٠٪ من السكان الأصائل، هذا على حين لم تربو على ١٠٪-٤٠٪ عند الأسبان. ولم يصل المرض إلى أمريكا الشمالية إلا في سنة ١٦٣٣، وكان ذلك في مدينة بوستون وقال بعض المؤرخين أن الفاتحين في أمريكا الشمالية تعمدوا نشر المرض بإدعاء الكرم وتوزيع ثياب من مات منهم بهذا المرض على الهنود الحمر.

(ج) الزهري: مما لا شك فيه أن هذا المرض وجد في أمريكا قبل الفتح. وآية ذلك تماثيل من الخزف تمثل مظاهر جلدية، وبعض العاهات التي تنتج عن وراثته هذا المرض، كسقوط قنطرة الأنف، وشكل الأسنان (هتشنسون)، ثم بقايا من العظام تؤكد الإصابة به، وقد بلغ اتهام هنود أمريكا بإيواء هذا المرض جد التأكيد بأنهم أخذوه عن اللاما وهو حيوان الحمل والنقل الذي استخدموه. ومن جهة أخرى، يمكن الشك في كل هذه التأكيدات في ضوء العلم الحديث، من حيث إن أغلب الإصابات التي وصفت قد تنتج عن أمراض مستوطنة أخرى كالفرامبيزيا (Frambesia) (المصع)، وعلى كل

حال فإنه يجوز القول بأن هذا المرض، إن وجد في أمريكا من قبل، كان خفيف السطو ولم يحدث إصابات إحصائية خطيرة، كتمدد الشرايين أو الشلل العام.

أما سبب رد هذا المرض إلى عدوى من أمريكا فهو اتفاق تاريخي بين الفتح الأسباني وبين ظهوره سافراً في أوروبا، وكان هذا على وجه التحديد في برشلونة بأسبانيا. فقد أكد المؤرخون أن أول من أصيب به بحارة كولومبس في جزيرة هايتي، وقد واءم هذا التاريخ تفشى ذلك المرض على شكل عنيف قاس في مدن أوروبا جمعاء. ومنذ ذلك الحين بدأ جدال بين فئة العلماء الذين نسبوا أصل المرض إلى الأمرنديين، وبصورة خاصة إلى الأمرنديين، وبين الآخرين. وما يزال الجدل متسماً حتى يومنا هذا بكل حماسة التعصب الوطني، فتنسبه كل دولة إلى الآخرين. وبما أن هذا المرض ظهر، أول مرة، في إسبانيا، ثم نقله إلى نابولي بإيطاليا جنود من الأسبان رحلوا إليها لحماية الملك فرديناند الثاني ضد الفرنسيين - وإن الجنود الفرنسيين أصيبوا بالعدوى ونقلوها إلى فرنسا. فقد سماه الإيطاليون والأسبان بالمرض الفرنسي وسماه الفرنسيون بمرض نابولي، ووضع العرب نهاية للجدل وسماه بالمرض الأفرنجي.

أما في أوروبا فقد وجد مولر - كريستيانسن Moeller - Christiansen عدداً قليلاً من بقايا العظام التي تشير إلى الإصابة بالزهري من قبل القرن الخامس عشر (٢٣٣). ويرجح هذا العالم أن المرض وجد بأوروبا كما وجد بأمريكا على شكل خفيف، ولكنه نشط عند عودة الجنود الأسبان، لتعرض الأوربيين إلى سلالات من جرثومة هذا المرض لم تألفها أنسجتهم، فظهر على شكله الوبائي الخفيف.

(د) **الفرامبيزيا**: (المصع) وهو مرض شبيه بالزهري، سببه جرثومة من فصيلة اللولبيات قريبة من تلك التي تسبب الزهري، وقد وجدت له آثار في أمريكا ترجع إلى العهد الحجري الحديث، وقد خلط الرحالة بينه وبين الزهري ولم يستطيعوا التمييز بينهما.

(هـ) **الملاريا**: هناك أوصاف عدة لحميات دورية وقد عزاها الأمرنديون إلى الهواء الفاسد، وكانت تعالج بقشرة خشب الكينا، ومع ذلك فإن الكثيرين يعتقدون أن سرض الملاريا بدأ ظهوره في أفريقيا حيث المقر المختار لبعوضة الأنوفلس الناقلة له، وأنه ظهر في جزيرة هايتي في سنة ١٥٢٦. أما تفشيه بشكل فتاك فإنه يرجع بصفة خاصة إلى القرنين التاسع عشر والعشرين.

(و) الحمى الصفراء: لقد تجادل المؤرخون في هذا المرض - في عنف وتعصب - مثلما تجادلوا في الزهري، وإن كانت حججهم أكثر جدية وأقل عاطفية، وقد تناول الجدل أخيراً النقاش حول أول من كشف عن دور بعوضة (آيدس) في نقل المرض، هل كان (بويرتوي) في فتزويلا أو (فنلاي) في كوبا (انظر المقال الثاني عشر).

تبين أخصائيو تاريخ الحشرات أن عدة أنواع من البعوض أستوطنت أمريكا قبل سنة ١٤٩٢، ولم يكن بينها نوع الأنوفيل الناقل للملاريا أو الأيدس الناقل للحمى الصفراء.

ومن المؤكد أن تلك الحمى انتشرت بين أهل كوبا في سنة ١٦٢٠، وجزر أنتيل في سني ١٦٣٥، ١٦٣٩، ١٦٤٧، وبعدها، وإنها بصفة عامة كان لها تأثير بالغ في حياة نصف القارة الغربية.

أما وجود هذا المرض من قبل فأمر جدير بالتأمل والنقاش وقد أكد (جويرا) هذا معتمداً على نصوص مايا ترجع إلى سنة ١٣٥٠، وعلى مخطوطات (مكستك). غير أن جل النصوص المعروفة وضعت، أو ترجمت - كما أسلفنا - بعد الفتح. ولذا فإننا، عند الرجوع إليها، لا يجوز لنا أن نجزم بصحتها جزم اليقين، كما أنها بنيت على تفسير لفظة كسيكيك Xekik ومعناها تقيؤ الدم، بالحمى الصفراء، ومن الواضح أن هذه الترجمة تنقصها الدقة.

ومن جهة أخرى أبدى أورفيدو Orviedo رأياً عجيباً في نشأة هذا المرض فقد كتب، سنة ١٥٣٥، أن الحمى الصفراء إنما تعكس في عيون الأنستبان ولغتهم بالذهب (٢٣٤) و(٢٣٥)، وهذا ما يشير إلى أن هذا المرض كان جديداً على البلاد. وأيد الكثيرون الرأي القائل بأن هذا المرض ورد من أفريقيا إلى أمريكا مع العبيد الأفريقيين، وصرح أكر كنخت أن المرض الذي فسره المترجمون بالحمى الصفراء كان في الحقيقة التيفوس (٢٣٦).

وأخيراً فقد لقب أهل البلاد الأصليون هذا المرض بالمرض «الوطني» لزعيمهم أن إصابته الأوربيين أكثر من أصابته أياهم، وهذا رأى عجيب يصعب تفهمه، حيث إن الهنود دفعوا له ضريبة فاحشة بعد الفتح.

## العاهات والتشوهات الخلقية:

قد يتعجب الزائر المتجول في متحف من متاحف الفن الامرندي، لعدد التحف التي تمثل أناساً مصابين بعاهات مختلفة، منهم القزم وأغلبه من الاكوندروبولازيا والأحداق سواء أكانت حادة كالتى تنتج عن درن العظام، أم مستديرة كالتى يسببها لين العظام، والشفة الأرنبية، وصغر الفك الأسفل، والتواء الرقبة، والقدم الحنفاء، والمهق Albinism. والأعجب من هذا أن تلك التحف مصنوعة في دقة ومهارة ومنحوتة من مواد نفيسة كاليشم Jade الأخضر. ولا عجب، فإن بعض هذه النقوش رمزت إلى شخصيات مقدسة، ولم ينظر إلى هذه العاهات والتشوهات كسائر الأمراض، على أنها عقاب الخطيئة أو فعل أرواح شريرة أو تجسد عقاريت، بل على العكس، ظن أنها لافتات سماوية تنبئ بمواهب خاصة ويقوى تفوق الطبيعة، يجدر بالناس احترامها، وتشير إلى اختيار الالهة لحاملها الكهنة أو الأطباء.

ولذلك فإن التفرقة بين التصويرات الرمزية، وبين المسخة الحقيقية أو التشويه الخلقى بالغة الصعوبة.

ومن مظاهر ازدواج النظرة إلى العاهات أن المسخ Monster، كان موضع ازدراء المكسيكيين، فقد روى أن إمبراطور الإستيكاس (مكتروما الثانى) فر ولاده طفل ذى رأسين، قبيل الفتح الأسبانى، بأنه ينذر بالسوء. وكانت الحوامل تحاول درء هذه التشوهات عن أطفالهن بالاختباء فى الظلام خلال كسوف القمر أو الشمس لتحتفى من تأثير (الإله كسولوتل Xolotl) المسخ. وقد شملت هذه النظرة التوائم إلى حد فرض إعدام أحد الوليدين.

وقد كثرت تصاوير التوائم السياميين أو ذوى الرأسين، ونسبت إليهم رمزية خاصة بازدواج كل مظاهر الخلق، وهو ازدواج متجسم فى : الشمس والقمر، السماء والأرض، الليل والنهار، الأرض والماء، والبرد والحرارة، والرجل والمرأة. كما أن بعض التوائيل مثل نصف منها إنساناً كاملاً ومثل النصف الثانى هيكلاً، ليرمز إلى عودة حلقة الحياة والموت.

وقد وصل العتب بالجسم البشرى إلى اختلاق العاهات، وهى عادة لعبت دوراً هاماً فى حياة أغلبية الشعوب الأمريكية الاجتماعية. وقد درسها (دمبو Dembo)\*. دراسة مستفيضة. ومن المحتمل أن يكون القصد من بعضها التفرقة بين بعض طبقات الشعب المتمتع بامتيازات، كالكهنة، أو الأعيان، أو النبلاء، أما أغلبها فكان الغرض منها الزينة للامثال إلى مثل جمال خاصة.

وكان أهمها تشويه الرأس منذ الطفولة لإطالته رأسياً وتسطيحه أفقياً. والحقيقة أن هذا التشويه إنما كان الغرض منه المبالغة فى شكل المايا الطبيعي، إما لتحقيق الشبه (باله الأذرة)، وإما لتسهيل حمل الأثقال المحمولة على الظهر بوساطة رباط مشدود على الجبهة. وقد كتب (فلورنوا Flornoy) فى هذا الصدد: «لقد كان الرأس موضع اهتمام خاص، وكانوا يضعون رأس الطفل بين لوحين لينمو نحو السماء ويتخذ شكل التاج المثلث، وليكون أعلى منه عند سائر الناس، فقد كان هذا - فى ذهن الهنود - علامة التحرر، وكانوا بذلك يتخيلون أنهم يتحكمون فى نظام الطبيعة ويغيرونها بأيديهم» (٢٣٧). وقد كشف فى الأرجنتين عن جمجمة مركب عليها جهاز مكون من لوحة على الجبهة وأخرى على الرقبة، مربوطتين برباط بشد تدريجياً، يركب على رءوس المولودين الجلد لمدة تتراوح بين أربعة أيام أو خمسة

ومن الأمثلة الزخرفية الأخرى، تشويه الأسنان وسن أطرافها على شكل المنشار، وترصيع سطوحها بالذهب أو بالحجارة كالفيروز أو الصدف<sup>(٢٣٨)</sup>، وثقب فص الأذن لتركيب أقراط ثقيلة لا تلبث أن توسع وتطيل الأذن الخارجية، أو ثقب الأنف أو اللسان للغرض نفسه، أو ثقب الشفة السفلى ووضع زينة فيها لتدل على بلوغ سن المراهقة. وكانت رءوس تماثيل المايا تحمل أنوفاً اصطناعية تحاكي منقار الكويتزال Quetzal وهو الطير المقدس.

إلا أن أغرب تشويه عدوه إشارة إلى سمو المنزل هو الحول، وقد ذكر Diego de la Landa أن الأمهات كن يحدثن الحول بتعليق كرة من الصمغ مربوطة بشعر الأطفال قبالة أعينهم<sup>(٢٣٩)</sup>.

Dembo, A., Imbelloni, 1938, Deformaciones intencionales.... Buenos Aires: Jose Anesi. •

## الجراحة :

إن الجراحة أولى وسائل العلاج التي تحررت من السحر والدين في كل الحضارات، وقد اعتمدت على التجربة لسبب واضح هو أن ممارس صناعة اليد (كما سمى الإغريق والعرب الجراحة) كان يعالج أمراضاً أسبابها ظاهرة، لها خطورة مباشرة، ولم يسعه عند تناولها إلا تطبيق ما جربه ووجدته ناجعاً، وذلك لخطورة الانصراف إلى تملّات تعقّلية محضة إزاء نزيف أو عدوى. غير أن إمكاناتها ظلت محدودة وذلك لقلّة المعارف التشريحية، ولبدائية الوسائل الفنية، وللافتقار إلى طرق كفيلة بإيقاف النزف العميق أو الألم أو العدوى. ولذلك قد اقتصر الجراحون في كل الحضارات البدائية على إجراء العمليات السطحية البسيطة كاستخراج الأجسام الغريبة وعلاج الجروح غير النافذة، ورد الخلع والكسور، وفتح التجمعات القيحية البسيطة، واستئصال الأورام الصغيرة السطحية وقد دأبت بعض الشعوب جراحة الجمجمة منذ العصر الحجري القديم فأرست الترتية. كما أجرت عمليات بتر مبسطة وعملية الختان. وكان أمهر تلك الشعوب الاستيكاس، والبروفيون قبل الأينكاس.

وشمل علاج الجروح الخياطة بشعر آدمى أو حيوانى أو بخيط نباتى تحمله شوكة من الصبر أو إبرة مصنوعة من عظم سمك مثقوب. وابتكر وسائل طريقة أخرى استخلمت أيضاً في الهند الشرقية (سوشروتا) وما تزال شائعة بين هنود وادى الأمازون في جبال الإنديز وهي وضع نمل كبير الجسم على الجرح يحثه نهمه على القبض على شفتى الجرح بفكيه، وعندئذ بتر رأسه وترك فكيه وهما ماسكتان شفتى الجرح، ومن الطريف أن هذه الطريقة وصفها في الأندلس الطبيب العربى الفذ (أبو القاسم الزهراوى) في القرن الحادى عشر الميلادى.

وكانت الأجسام الغريبة تستخرج بملقط من البرونز، أما الجروح فكانت تغسل بالماء أو بالبول، أو بعصارات نباتية تضخ بالفم بوساطة مضخات يدوية. ومن أنواع العلاج الموضوعية : المواد الدهنية وعسل النحل وخلصات نباتية مخلوطة بالشمع أو بصفار البيض، وكانت التقيحات المغلقة تفتح بالمبضع، أو تمتص بالفم، أو بوضع التبغ وأدهنة مختلفة عليها. وكانت جروح الوجه تعالج في عناية خاصة. قال (سأهاجون) : «إن

جروح الوجه يجب حياكتها بشعر من الرأس، ثم وضع عسل مخلوط بالملح على الغرز وعلى الجرح، أما إذا لم ينجح العلاج وسقط جزء من لحم الوجه، فعلى الجراح أن يكسيه برقعة تحاكي شكله».

وكانت الخروق تترك على علاتها بعد تغطيتها بمزيج مكون من العسل وصفار البيض وعصارات نباتات معينة.

**وكان الخلع:** يعالج بالتثبيت والتدليك الخفيف والأدهنة المسكنة. أما الكسور فكانت ترد بالشد وبالتحركات اليدوية وبلبخ من النعناع وألياف الأندار ephedra، ثم تثبيت العضو المضاب بوساطة أربطة سميكة مشربة بصمغ سريع التجفف، أو بوساطة جبائر من الخشب أو من ورق الذرة المشيع بدهان لاصق. ويجوز الشك في نجاح علاج وصفه (سهاجون) للحالات التي لا يتم فيها الشفاء، ومفادها ترقيع العظم بوضع قطعة من الخشب الصمغى في تجويف النخاع.

**وتجيد البتر:** مصوراً تصويراً واقعياً على كثير من أواني الخزف التي روعى فيها رسم الغرز على الجذعة أو على ما بقى من العضو، وتجيد بعض هؤلاء المتورين مزودين بعضاً أو بأطراف صناعية عثر على طائفة منها في المقابر. وقد وجدت أيضاً في إناء من الفخار أصابع مبتورة وسكين من الزجاج البركاني استخدم لبتريها، ولا شك في أن هذه الأصابع كان لها في أمريكا - كما كان لها في حضارات قديمة أخرى - معنى سحري بالغ الأهمية. وكان للبتر معان كثيرة: فإن أقدام الأسرى كانت تبتز لمنعهم من الهروب، وكان بتر الأصابع طقساً من طقوس الموتى عند هنود الأوروغواي (الشاروا) وفي كندا وكاليفورنيا.

**وكانت التريئة:** بلاشك أغرب العمليات الجراحية، وتلك عملية أجراها إنسان أسكندنافيا وجزر بولنيزيا وسيبيريا وأفريقيا الشمالية، وبلاذ ما بين النهرين ومصر، ومن المعروف الآن أن هذه العمليات شملت أمرين مختلفين كل الاختلاف فإن بعضها كان يجري بعد الوفاة لإستخراج قطعة من العظم تستعمل على شكل تيممة أو طلسم. وفي هذه الحال يبدو الجرح متساوياً، مستديراً، وخالياً من أية علامات الشفاء. وكان البعض الآخر يجري على الأحياء، وذلك ما يتبين من وجود تفاعلات حيوية على شفة الجرح،

وقد شاعت تلك الجراحة، بصفة خاصة، في بيو قبل حضارة الإينكاس بزمن طويل، أى في العهد المسمى عهد الكهوف. وقد وجد عدد كبير من تلك الجماجم مجعاً في مقبرة في شبه جزيرة باراكاس، دون الوصول إلى أى تفسير لهذا التجميع. (شكل ١٣-٦ و٧)

على أننا إذا تأملنا في الحالات التى أجريت لها الترتبة وجدنا أن أقدمها كان يرجع إلى اعتبارات سحرية، أى السلاح للروح الدخيلة بالخروج، ثم تحولت فيما بعد إلى عملية يقصد منها إما استئصال شظايا العظام المكسورة، أو علاج أورام المخ، أو تقيحات جيوب الأنف الجبية، أو إصابة عظام الجمجمة بالالتهابات التقيحية أو بمرض (الأوتا).

وكانت وسيلة الترتبة في أول عهد الإنسان بها، الحك بآلة من البرونز، ثم ابتكرت وسيلة أخرى هى إجراء ثقب متتالية على خط مستدير، ثم يرفع الدائرة عند انضمام حواف الثقوب. وقد صورت بعض الآثار الفنية هذه العملية، ونجح جراح معاصر من بيو اسمه (جرانا) في إجرائها بالآلات ذاتها التى استعملها أجداده. ونفضل هذه العملية فيما يلى :

حلاقة الرأس قبل العملية بيومين - وضع أوراق الكوكا المدهوكة لتحقيق تخدير موضعى - التخدير العمومى بالخمر - ربط الرأس على مستوى الجبهة برباط من صوف اللاما - شق الجلد بمبضع من الذهب أو الفضة أو النحاس على شكل هرساة مقلوبة - وخز طبقة عظم الجمجمة الخارجية بمثقاب من البرونز أو الزجاج البركاني الأسود، ثم احتراق طبقة العظم الداخلية بعناية فائقة لتجنب احتراق الجيوب الوريدية أو جرح الأم الجافية - والتضميد بالقماش المشيع بأملاح الزئبق أو بسلفات النحاس. وكانت الفتحة تسد أحيانا بدائرة من المعدن. وقد حازت هذه العملية نجاحاً يثير الإعجاب، فلقد وجدت آثار تدل على شفاء الجرح في ٦٢٪ من الحالات. ولكن مما لا شك فيه. أن النزف والعدوى كانا يسببان وفيات كثيرة.

الحقتان : ما يزال إجراؤه مشكوكاً فيه وإن بدت بعض التماثيل مختنة، أما مدلول هذه العملية فإنه كان إما زخرفياً لتحسين شكل الإنسان أو إشارة إلى تقديم دم نفيس إلى الآلهة.

ومن الإجراءات العلاجية الأخرى الشببية بالجراحة، لنذكر الفصد والشق بالمبضع أو بتصويب الأسهم، والحجومات، وقد كانت لها معان سحرية أو دينية، منها التشفع للآلهة، أو التخلص من العفاريت، أو تقديم الدم قرباناً، وكانت تجرى في مواسم يعينها التقويم، وكان الدم إما يمتص بوساطة قرعة مفرغة توضع بين الجرح والفم، وإما يجتذب بالحجومات أو بدهك الجلد بالفلفل الأحمر.

**وكان الفتق:** يربط، ولا تجرى له جراحة. وكانت الجروح التي يسببها عض الثعابين تستقصى، وكان السحرة يدعون شق البطن واستخراج الثعابين والضفادع وأشياء أخرى منفردة من تجوفه.

### الصحة العامة :

وإلى جانب البدائية في الطب وفي العلوم المتصلة به، والطرائق العلاجية الغريبة غير المنطقية التي استخلمها الأمرنديون، وجد الأوربيون ما أثار دهشتهم وإعجابهم في تخطيط مدن المكسيك ولا سيما إذا أخذ في الاعتبار تركيز السكان الملحوظ فيها، فقد روى أن عدد سكان كل من (شان شان) و(كوزكو) ببيرو بلغ ١,٠٠٠,٠٠٠، وأن كلا من (شيشن أتزا) و (تيكال) و (كوبان) كانت تأوي ٢٠٠,٠٠٠ نسمة، وهو عدد يفوق عدد سكان باريس في ذلك الوقت. وقدر سكان (تنو شتلان) بتسعين ألفاً وقيل خمسمائة ألف، وقد كتب عنها فانمها (كورتس): «إن الشوارع الرئيسية واسعة ومستقيمة، نصفها أراضى ونصفها الثاني حفرت فيه قنوات لزوارق الهنود»، وكتب (دى لاندان): «إن الهنود يقطنون مدنا منظمة نظماً كاملاً ونظيفة ومجردة من الأعشاب ومزدانة بأشجار جميلة».

وقد ابتهى أهل بيرو منازل من الحجر، واستخدم الإسيتيكاس (القرميد)، وأفسح اغنياؤهم باحات وسط المنازل للتهوية والترفيه، وبنى المايا منازل من (القصرمل) وزدوها بأسقف منحنية مغطاة بالقش. وقد اقتصت مدينة تنوشتلان (مكسيكو حالياً) بمراحيض عامة، حيث كانت تجمع الفضلات لتستخدم في الزراعة. واعتنت السلطات عناية خاصة بالمياه النقية. وكانت تلك المياه تجلب إلى مدينة (كوزكو) ببيرو من عيون في الجبال المجاورة، عن طريق وصلات جوفية حفرت بأمر من باشاكوتك المصلح

(١٤٣٨ - ١٤٧١)، وفي الوقت نفسه أمر مكتروما الأول (١٤٤٠ - ١٤٦٩)، بتشييد قنوات معلقة aqueducts لتوصيل المياه النقية من غابات (شابليتيك) إلى (تنوشتلان)، وبنائها من طبقتين تستعملان على التابع للتمكن من التنظيف، وتصب تلك القنوات في خزان في وسط المدينة يغذى شبكة من الوصلات الثانوية، وقال (برنال دياز دل كامستلو) عندما شاهد هذه العجائب: «إن ما يدعو إلى التأمل والتفحص يفوق قدرتي، فإني رأيت إنجازات لم يسمع بمثلها قط، ولم تر البتة من قبل ولا سبيل لتخليها»<sup>(٢٢٣)</sup>.

ولم تتخلف العناية بنظافة الفرد عنها بالنظافة العامة، فقد كان (مكتروما) يغتسل مرتين يوميًا، وبصورة خاصة كان يواظب على غسيل يديه قبل الأكل وبعده، وبلغ الأمر بالإستيكاس أن عدوا عدم الأغتسال ذنبًا، وكانوا يستعملون - بدلًا عن الصابون الذي لم يعرفوا صنعه - نوعًا من الثمار، وجذور (السابوناريا أمريكانا). وكشف الباحثون عن حمامات فردية من الحجر في قصور (كوزكو)، ومنازل أعيانها. وكان يحكم على أهل بيرو - إذا أدينوا بالقدارة - بالضرب بالعصى ويشرب ماء حماماتهم، ثم أن الاستحمام في الجداول والعيون الساخنة كان شائعًا بينهم. ومن عاداتهم الصحية التردد على حمامات البخار أو الهواء الساخن بغية النظافة أو الشفاء من بعض الأمراض. وبلى حمام البخار الغوص في النهر، أو في الثلج، وشرب الماء البارد، كعادة السونا sauna الفنلندية.

وقد عنوا عناية خاصة بالرياضة البدنية لإعداد نشأة من الشباب لائقة بالأعمال الشاقة وبالمشاركة في الحروب.

ولقد فطن الهنود - منذ أول تاريخهم إلى الثروة النباتية من العقاقير الموجودة في بلادهم، ولأنواع النباتات التي تؤثر تأثيرات عنيفة على الجهاز العصبي. ومن تلك النباتات الكوكا التي يستخرج منها اليوم شبه القلوي الكوكاين والتي كان البيروفيون يعضون أليافها بشيء من الجير أو الرماد، لتزيل التعب وتنشط أعصابهم وعضلاتهم، وقد استعملها الكهنة للاستعانة بها على استخدام النشوة الدينية التي اتصفت بها عباداتهم، غير أن السلطات أدركت مضار الإدمان على استخدام هذا النبات، فوضعت حراسًا على المزارع وحددت لكل عامل ورقة واحدة يوميًا.

أما في المكسيك فقد شاع استعمال التبغ، وكان المخدر المفضل هو (البيوتل) وهو نوع

من الصبر له - بالإضافة إلى خواص الكوكا - خاصة إحداث الهلوسة والتخيلات الوهمية. وقد شاع استعماله لدى الكهنة والسحرة، الذين استعملوا كذلك أنواعا من الفطريات ذوات خواص مماثلة. وقد أدت إعادة تفحص هذه النباتات أخيرا إلى معرفة خواص هذه الفطريات واستعمالها طبيًا من جهة، وإلى نوع جديد من الأدمان من جهة أخرى.

ومن النباتات الأخرى المفيدة التي استعملوها ، طائفة كبيرة ورثناها عنهم وما نزال نستعملها إلى اليوم : منها بلسم بيرو، وبلسم طولو، والكاكاو، والكوبال، والكورار، وطائفة من فصيلة الفربيون، (والغويقم guaiac الذي عدوه نباتًا مقدسًا يعالج به الزهري، وعرق الذهب الذي استخرجت منه مادة الإمتين، والجلية، والعشبة، والتبغ، ورعى الحمام، والمطاط الذي استخدموه في صناعة اللصق، ونبات اسمه كارباتروش له مزايا زيت الشولوجرا chaulmoogra نفسها في علاج الجذام، والكينيا<sup>(٢٤٠)</sup>).

وللكينيا تاريخ أشبه بالقصة البوليسية. روى أن بعض هنود بيرو لاحظ أن ماء بعض المستنقعات اكتسب، بعد زلزال هز أرضهم، مرارة جديدة تشفى الحميات، وأدركوا أن هذا الماء إنما اكتسب هذه الفائدة من خشب شجر سقط فيه بعد الزلزال، فاحتفظوا قرونا بهذا السر، حتى سنة ١٦٣٠، أى بعد حدوث الفتح بمائة سنة، وحدث أن أصيب محافظ لوكسا الأسباني، واسمه دون لويزدى كانيزارس، بحمى راجعة، فشفاه أحد الوطنيين بهذا الدواء، ردًا لجميل كان يدين له به. ثم أصيبت في سنة ١٦٣٩ كوتنس (دى سنشون) - قرينة نائب ملك بيرو - بحمى شفتت منها بفضل هذا العقار، وتوفاه الله في طريق عودتها إلى أسبانيا، إلا أنها - قبل مغادرتها بيرو - أهدت مقدارًا من القشرة العجيبة إلى اليسوعيين الذين أسرعوا فأبلغوا الأمر إلى رؤسائهم بروما، فبادرت جمعية اليسوعيين بتوزيع الدواء الجديد في أوربا، وربحت من احتكار هذه التجارة أموالا طائلة، وأطلق على الدواء (كنكينيا) وهو لفظ منحدر من اسم كوتنس (دى سنشون).

### المهنة الطبية :

بلغ الأطباء والمتطبيون منزلة رفيعة في مجتمعات ما قبل كولومبس، ذلك أما لأن الساحر كان يمين على قبيلته يحكم اتصاله المزعوم بالقوى التي يتحكم فيها، أو لأن

الطبيب كان ينظر إليه على أنه عضو مفيد في المجتمع يمتاز بالعلم واللباقة والحدس النفساني.

أما التعليم الطبي، بمعناه الحديث، فلم يكن معروفاً، وقد روت أساطيرهم أن طب الـ (تولتك) نظمه مجتمع من الحكماء الأربعة الذين أنشئوا التقويم التكهني وهم (أكسوموكو Oxomoco)، و (سيكتونال Cipactonal)، و (تلاتيتيكم Tealtetecum)، و (خوشيكواكا Xochicuaca).

ولا ندرى هل كانت مزاوله الطب في بيرو مقصورة على فئة من الناس. هذا وإن كان (روكا) - سادس ملوك الإينكاس - سجل أمره بتعليم العلوم للنبلاء فقط لئلا يتكابر أهل الشعب.

وعند الإينكاس انتمى ممثلو أعلى فئة من فئات الأطباء إلى الطبقة الحاكمة وتخرجوا في مركز علمي في مدينة كوزكو Cuzco، حيث كان يدرس أيضاً فن ربط العقد على الحبال، وهو فن حل عندهم محل الكتابة عندنا.

أما في بلاد (المايا) فإن الطبيب كان عضواً من فئـة الكهنة، وكانت المراسم بالتصريح بمزاوله المهنة. تقام في حفل ديني سمي (بوكام)، ويُهـدى في خلاله صندوق يحوى عقاقير وحجارة وتماثيل صغيرة للآلهة، وأشياء أخرى ذوات طابع سحري.

وقد وضعت لممارسة المهنة قواعد وقوانين لا سيما في بيرو التي استازت بنظام إداري محكم. وكانت أحكام صارمة توقع على الأطباء الجهلة، أو على مزاولي السحر الأسود. كانت وجوههم تبخ بمسحوق الأذرة أو برماد شعر ضحايا أعمالهم، أما الذين يقتلعون السم فكانوا يقتلون نسرًا أو يرمون مع أولادهم، أو يخلى بينهم وبين الحيوانات المفترسة أو الثعابين في كهف من كهوف مدينة كوزكو.

وكان الأطباء في المكسيك يجبرون على التقدم لامتحانات قبل منحهم الترخيص بمزاوله مهنتهم، وقد سمح للسيدات بمزاوله المهنة في غير أوقات حيضهن، وربما وجدنا في تلخيص (ساجون) للفضائل التي كان يجب على الطبيب أن يزدان بها وصفاً لما عدوه الطبيب المثالي قال: «يجب على الطبيب أن يكون نموذجياً، كالمنار أو المرأة اللامعة، عالماً مقتنياً للكتب، محافظاً على التقاليد، مدركاً لمسئوليته، وجديراً بالقيادة. إن

العالم هو المرشد، وأستاذ العلم الصحيح جدير بالثقة، معتمد، يرشد إلى الصواب، يعيد النظام المفقود، خبير بعالم الموت، وقور، بعيد عن أى عتاب، متفهم، مطمئن، باعث للسكينة، مستجيب إلى ما يطلب إليه، معيد للأمل، ومشارك في علمه. أما عالم السوء فهو طبيب محدود الأفق، مكابر يدعى الحكمة وبتغنى الثقة وهو ساحر مشعوذ، خداع لص عام، هادم، ضار، ومرشد إلى الخطأ، يقتل الناس ويفسدهم. أن الطبيب (تسيتل) يشق الناس ويعيد إليهم الصحة، له دراية بالتشخيص وخبرة في خواص الأعشاب والحجارة والجذور، وهو معتدل في سلوكه ويشق عن طريق رد العظام وتركيب الجبائر، وتليين الأمعاء، وإعطاء المقيثات، والفسد وخباطة الجروح، وشق الفتحات. أما الطبيب الرديء فإنه كذاب حرقى، مجرد من القلب، غشيم، يقتل بعقائيره، يزيد من شدة المرض، ويحاطر بحياة غيره، يدعى العفة والرشد، ويلقى التعاويذ، ويقرأ الحظ ويخدع السيدات ويشعوذهن».

ولا ندرى هل أنشأ الأمرنديون هيئة أطباء من بين موظفي الدولة، ولكن ذلك محتمل. فقد عين ملوك (ميشواكان) هيئة منهم لعلاجهم الشخصي، كان يتحتم على أحدهم اصطحابه في العالم الآخر بعد وفاته (آه!!) وإلى ذلك فإن الجيوش كانت تصحبها فئة من الأطباء لا تقل تنظيمًا وفعالية عن الفئات المماثلة في أوروبا.

وكان الجرحى ينقلون من ميادين القتال في وسط المعركة، وذلك لغرضين: محاولة استعادة العناصر المحاربة، وحرمان العدو من اقتناء أسرى تقدم قرابين لآلهة لا سترضائها، وقد شهد (دياز دل كستلو) بأنه لم ير ميتًا واحدًا في خلال معركة شاهدها، وكذلك روى (متوليننا Motolina) أن الجراحين كانوا يضمّدون الجرحى وسط القتال (٢٤١).

ومن فئات الأطباء التي ذكرتها النصوص: الطبيب العام، الكاهن الساحر، الطبيب العلماني، الطبيب المتنقل، طبيب البلاط والنبلاء، وطالب الطب.

ومن المختصين: الباطني، والجراح، والمجبر، والفاصد أو المزين، وطبيب العيون، وطبيب الأسنان، وطبيب الأذان.

ومن الصعب إدراك تخصص كل فئة، هل كانت تلك التسميات مجرد وصف ورد

على قلم الكاتب، أو كانت تشير إلى تخصص دقيق.

\*\*\*

وبعد ، فلقد حاولنا في هذا المقال إلقاء نظرة على لون من الطب، استقل في تطوره على طب العالم القديم، غير أننا لنعد أنفسنا ناجحين إن كنا دفعنا بعض قرائنا إلى التأمل في تأثير حضارة شعب على طبه ووسائل علاجه، ذلك أنه قدر لكل شعب ما يليق به من الطب، وما هو جدير به، كما أن لكل شعب آهة اختارها لنفسه لتجسيم مثله فيها.

نشأ طب الأمرنديين في جو من السحر والتدين، واتسمت دياناته بقسوة نادرة المثل. وإذا كان الجانب التجريبي منه قد ترعرع على مر القرون وأثار إعجاب الفاتحين الأوربيين، وعرفنا بعقاير فعالة، ما نزال ندين له بها، فإن الجانب الآخر ظل معمولاً به إلى جانبه، كما نرى اليوم قوافل الجمال إلى جانب الطائرات النفاثة، والمراكب الشراعية إلى جانب البواخر النووية، وظل هذا الجانب متحجراً ، بل نقل نحمده إلى قرينة التجريبي، شأن الاعتبارات الدينية الزائفة التي تدعى احتكار الحقائق الأزلية، والتي يحتمى في ظلها كهنة متعصبون استثمارها لمصالحهم.

لقد رجم هنود أمريكا الزائنين، ولكنهم لم يجمعوا عن الزنا وعن ألوان الانحراف الجنسي من خلال طقوسهم الدينية، عنوا بالأطفال والمرضى عناية فائقة ولكنهم شقوا صدور الأسرى وأحرقوهم قرباناً لألهتهم، تعففوا عن السكر، واحتسوا الخمر والمهلوسات في نشواتهم الدينية، أشادوا بمثل عليا يقتدى بها الأطباء، وسلخوا الفتيات حية واتخذ ساندو ديانتهم جلودها ثياباً، أदानوا القذارة، وأكلوا اللحوم البشرية في طقوسهم الغائرة، وضعوا تقاويم دقيقة وامتازوا في الحساب الفلكي، ولم يفسنوا إلى فوائد العجلة في النقل، ابتنوا مدناً حازت مرافقها إعجاب أوربا، وجهلوا الحرث وأجدبوا حقولهم بزراعتهم البدائية.

وقد احتار الفاتحون الأوربيون إزاء هذه التناقضات، واستنكروا الذبائح البشرية، واتهم الدين والهلوسة التعبدية، واللواط والشذوذ الجنسي، والعلاقات الجنسية بين الأقارب، إلى حد الشك في بشرية هذه الشعوب. لأنهم لم يحاولوا تفهم أسسها

العقيدية، أو تصور الصورة الخلفية التي برزت فيها هذه العادات الغربية عليهم، أو خوض الأعماق النفسية التي ازدهرت في تربتها، أو بحث المفاهيم الاجتماعية والأوضاع التي قامت عليها.

وقد حاولوا استبدال مثلهم الأوربية بالمثل القديمة، ولم ينجحوا تمامًا في هذا الاستبدال، وتركوا فراغًا روحانيًا لم يستطيعوا ملأه، وهذا الفراغ ما يزال يعاني منه سكان هذه البلاد. وقد بلغ الأمر بأحد الكتاب الممتازين الذين عرضوا لهذه المسائل أن ألف كتابًا أسماه (ذهن الإنسان قبل كولومبس) The Pre-Columbian Mind<sup>(٢٤٢)</sup>. حاول فيه تفسير هذه الظواهر تفسيرًا علميًا، وذهب إلى أن الشراسة غير البشرية في عوائدهم ترجع إلى عدم اعتقادهم في جحيم تعذب فيه أرواح المخطئين في العالم الآخر.

ومهما يكن من أمر هذه الحضارة التي لا نستطيعها وإن كانت عندهم في ذلك العصر طبيعية ومقبولة، سواء أكانت وليدة تكوين بيولوجي خاص نشأ في خلال عزلة عن بقية البشر دامت آلافًا من السنين، أم نتيجة لتطور فكري وعقيدى اختصوا به في أثناء هذه الحقبة الطويلة من العزلة التاريخية، فإنها إنما تقوم دليلًا على ظاهرة من ظواهر ذهن الإنسان الخيرة، وهي الانقسام الذي كثيرًا ما نقابله فيه، كأن الذهن مقسم إلى (خانات) تفصل بينها حواجز لا سبيل إلى عبورها.